

الكتاب الثاني

اعمال الملك بلدوين الأول

كيف قدم بلدوين ليحكم القدس :

اصاب بلدوين شيئا من الحزن لوفاة اخيه ، ولكنه عندما علم ان اهل القدس جميعا يتوقعون ان يتولى حكم المملكة بصفتة الوريث الشرعي لها ، فرح اكثر لميراثه ، وبعدها عقد بعض الاستشارات اعطى البلاد التي له الى ابن عمه ، ثم جمع جيشه الصغير الذي لم يتجاوز تعداده مائتي فارس وسبعمائة راجل ، وركب الطريق وانطلق يوم القدس في الثاني من تشرين الاول .

وقد ادهش الكثيرين بشجاعته واقدامه على عبور كل تلك البلدان المعادية مع عدد ضئيل من الرجال ، كما ضرب الهلع وتملك الخوف قلوب الكثيرين ممن صاحبونا فانسحبوا وتخلوا عن مرافقتنا خلسة ودون علم منا ، وعندما اكتشف الأتراك والعرب اننا عازمون على القيام بهذه الرحلة حشدوا ما استطاعوا من رجالهم ، وزحفوا ضدنا مهاجمين ليوقعوا بنا اكبر خسارة ممكنة ، ومررنا بأنطاكية ثم عبرنا اللانقية ، ثم جبلة ومرقية وطرطوس وعرقنة الى ان وصلنا الى طرابلس .

وبعث امير طرابلس في تلك الآونة الى خيمة بلدوين بالخبز والنبيد والعسل المصفى ، وخرقان الضأن المشوية ، واخبر بلدوين ان دقاق صاحب دمشق وجناح الدولة امير حلب ، كانا في انتظاره مع جمع من الأتراك والمسلمين والعرب على الطريق الذي اعتقدوا انه سيمر

بها ، ومع اننا لم نصدقه وقتها تماما ، تبرهن لنا فيما بعد ان زعمه كان صادقا .

الكمين الذي نصبه الأتراك - مهارة بلدوين الفائقة
بالأمور العسكرية :

يقع على مقربة من بيروت - على مسافة خمسة أميال منها ، ممر شديد الضيق قائم على الطريق المماشي لساحل البحر ، ولم يكن بمقدورنا أو بمقدور أي إنسان كان المرور به وعبره ، إذا ما أراد عدو مزود بالموءن أن يحول دون عبوره ، ولو أراد مائة ألف جندي أن يعبروه لما استطاعوا إذا ماتصدى لهم مائة رجل أو حتى ستون مقاتلا عزموا على الوقوف هناك .

وعندما دنت طلائع جندنا من هذا الممر الضيق رأى رجالنا أترাকা انفصلوا عن آخرين وشرعوا يتقدمون نحونا ويتفحصون اوضاعنا ، ولما راتهم طلائع قوتنا اعتقدوا بوجود اعداد كبيرة خلفهم مختبئة في كمين ، وعندما شهدوا هذا راسلوا اللورد بلدوين بدون تقاعس ووصفوا له الاوضاع ، واستجاب بلدوين لهذه الأخبار بأن أمر رجاله بالاصطفاف للقتال ، وتعبأنا ، ثم زحفنا نحو العدو بتؤده نسير خطوة خطوة ، واعلامنا مرفوعة ، وعندما تيقنا من اقتراب نشوب القتال جئنا للصلاة بقلوب طاهرة خاشعة ، وطلبنا المدد من السماء ، وقابلت طليعتنا قوات الأعداء فردا فردا ، وقتل عدد منهم بالحال ، ولم نفقد غير أربعة من رجالنا .

وبعدما توقف القتال تشاورنا حول الأمر ، فصدرت الأوامر بنقل معسكرنا الى أقرب موقع من العدو ، ولم نرغب في أن نبدو خائفين ان نحن تخلينا عن الموقع وكأننا في وضع فرار ، لهذا تظاهرنا بشيء ، بينما اتجهت أفكارنا نحو شيء آخر ، وتصنعنا الشجاعة مع

اننا خشينا من الموت ، وصعب علينا التراجع لكن التقدم كان أشد صعوبة ، فقد حاصرنا العدو من كل جانب ، وكان هناك من طرف أول جماعات اتت في القوارب وخرجت من البحر ، ومن الجانب الآخر كان الآخرون ينقضون مهاجمين بدون توقف من الجروف الجبلية والشعاب ، وهكذا مر بنا يوم شديد البؤس حقا ، والصدق أقول : إنني تمنيت من كل قلبي لو كنت في تشسارترز أو في اوريلنز ، وكذلك تمنى البقية ، وقضينا تلك الليلة دون نوم خارج خيامنا وقد فترت عزيمتنا .

وفي الفجر عندما شرعت الشمس تجلو الظلمة عن وجه الأرض وبعدما تناولنا في أن نتراجع أو نموت ، قررنا جمع خيامنا ، والذكوص على أعقابنا والعودة من حيث أتينا ، وهنا حمل بعض رجالنا الموكلين بالأمثلة ما وجد معنا على ظهور الدواب ليتقدمونا بالمسير ، وفي الوقت نفسه تخلف فرساننا لمقاومة المسلمين المهاجمين .

ومع نور الصباح ، عندما تبين للأتراك - حلت بهم اللعنة - أننا أخذنا بالتراجع هبطوا على الفور من المرتفعات وشرعوا يطاردوننا ونحن لاندرى كيف نفعل ، فقادونا الى داخل الممر الضيق ، كما تقاد قطعان الماشية ، وكما سبق ووصفت جلاء بعضهم في القوارب من البحر ، وانقض بعضهم الآخر من خلفنا على الطريق ، كما كان هناك بعضا آخر جاءوا من التلال والجبال حولنا فرسانا ورجالة ، وأرادوا أن يفصلوننا عن موقع منبسط عند مخرج الممر ، حيث اشتد ضيقه بين البحر والجرف واستهدفوا ايقافنا وقتلنا ولكن الأمور لم تسر حسبما رغبوا ، فقد صمد رجالنا حيث كان يقول ، أحدهم للآخر : اذا ما تمكنا من ايقاف مطارديننا عند ذلك الموقع المنبسط ، فلعلنا - بعون الرب - نستطيع الحملة عليهم ، فاذا ماقاتلنا وقتها بضراوة يمكننا الانفصال عنهم والمضي في سبيلنا .

الاستبسال بالقتال ضد الأتراك :

وكان الأتراك في تلك الأونة يقفزون من القوارب حيث قتلوا الذين سولت لهم انفسهم الاقتراب من البحر ، ثم اندفعوا نحونا في الموقع المنبسط المشار اليه ، واخذوا يرموننا بالنشاب ويقذفوننا بالاسباب من كل جانب ، وكانوا يصرخون وينبحون كالكلاب أو كالذئاب ، ويتقدمون نحونا وسيوفهم مشرعة .

« فلا استطاع سليمان الحكيم ولاشمشون الجبار أن ينتصرا » . ولكن عندما أطل رب القوة والرحمة الواسعة من سمانه على الأرض ورأى خضوعنا ، وشهد المحنة الكبرى التي المت بنا بسبب محبته وفي سبيل طاعته ، عند ذلك تحركت رحمته السرمدية ، التي ينجد بها قومه دوما بكل حق ، فمنح رجالنا أرفع درجات الشجاعة فانعطفوا نحو أعدائهم ، وهزموهم وأرغموهم على الفرار في طريق ذي شعب ثلاث ، ولم يتوقف هؤلاء ابدا ولم يفكروا بالدفاع عن انفسهم – ولقد فر بعضهم الى الشعاب الجبلية الوعرة وبعضهم الآخر الى ملاجئ يأمنون فيها – في حين طاردنا بعضهم وذبحناهم بحد السيف ، ولقد كنت ترى بعضهم وقد اندفعوا مهرولين باتجاه قواربهم ، ليركبوا مراكبهم وكأننا كنا على وشك ان نتخطفهم بأيدينا ، وهرب آخرون لايلون على شيء وذلك بتسلقهم الشعاب والتلال .

ثم عدنا الى رجالنا الذين كانوا يحرسون دواب الحمولة على الطريق ، ونحن نشعر بنشوة الظفر ، وبالغبطة لنيل هذا النصر المبين ، وقدمنا ساعتئذ عظيم شكرنا للرب ، الذي منحنا تأييده العظيم في تلك المحنة الوافدة المليئة بالمخاطر .

ما اعجب تدابير الرب ، كم هي رائعة وجديرة بالتذكر ، فبعدما

كما منهزمين عدونا منتصرين ، وفي الحقيقة لم نكن نحن من انتصر بنفوسنا ، وكيف لنا أن نتنصر؟ أن الذي انتصر هو الرب وحده ، خالق الكل ، شامل القدرة ، الذي امد مخلوقاته بعونه ورحمته ومعنا ما قاله الرب لبني اسرائيل بوساطة الانبياء : « اذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتكم بها يطرد خمسة منكم مائة ، ومائة منكم يطردون ربوة ، ويسقط اعداؤكم امامكم بالسيف ، والتفت اليكم واثمركم واكثركم ، وافي بميثاقي معكم ، (لاويون: ٢٢٦ ، ٩/٨) ، وحيث اننا تحملنا الكثير من العذاب في خدمته ليلا ونهارا ، كسرنا باعجوبة الاعداء ، ولاننا تعبدناه في محنتنا بقلوب خاشعة نظر بعين الرضا لتذلنا .

ثم صدرت الاوامر بنصب الخيام ، وعرض امام اللورد بلدوين سادة الاتراك الذين اسروا وعرضت معهم اسلحة القتلى ، واستولينا على خيول بسروج مذهبة ، وفي صباح اليوم التالي ، تدبرنا امورنا كما لو كنا نطبق خطة مدبرة ، فسرنا مقدار اربعة اميال على الطريق ، وبعدها وزع الامراء الغنائم هناك استرحنا تلك الليلة في ظل اشجار الزيتون داخل اجمة قرب قلعة مهجورة .

واصطحب بلدوين في صباح اليوم التالي بعض الفرسان ، وتوجه بشجاعته المألوفة نحو الممر الضيق الذي اتينا على ذكره واستهدف معرفة فيما اذا كان المسلمون الذين اغلقوا طريقنا فيما مضى قد ظلوا هناك ، وعندما لم يجد منهم احدا ، ذلك أنهم لانوا بالفرار بعدما سمعوا بما حدث من الهزيمة والتمزيق ، جثا شاكررا للرب وحامدا ، ثم امر باشعال نار عظيمة على رأس الجبل ، وكانت تلك شارة لمن تخلف من اهل معسكرنا بغية المبادرة للحاق بمن تقدمهم ، ولما راينا النار ، شكرنا الرب ، وبادرنا الى اللحاق. ووجدنا الطريق سالكة مفتوحة لنا ، فأكملنا الرحلة حسبما ارتضيها .

واقمنا معسكرنا قرب بيروت لتمضية الليلة ، وعندما عرف صاحب تلك المدينة بأمر وجودنا ، أرسل بقوارب مليئة بالأطعمة الى اللورد بلدوين يوميا ، وكانت هذه المبادرة لاتدل على حسن النية ، ولكن كان مصدرها الخوف ، ولم يكن أبدا المحبة ، وفعل الشيء نفسه حكام المدن الأخرى التي مررنا بها مثل صور وصيدا وعكا ، فلقد تظاهروا بالمودة غير أن قلوبهم كانت خلوة منها .

وكان تانكرد يحكم مدينة حيفا التي استولى عليها رجالنا وهم في طريقهم الى القدس ، عند بداية هذا العام ، بيد أننا لم ندخل اليها لأن تانكرد كان معاديا لبلدوين ، ولم يكن تانكرد في حيفا غير أن أتباعه من سكان المدينة باعونا الخبز والنبيد خارج المدينة ، ذلك أنهم رأوا فينا أصدقاء لهم رغبوا في مقابلتهم .

ومررنا بقيسارية فلسطين وبقلعة أرسوف الحصينة ، التي ظننا لجهلنا أنها أسدود غير أن أسدود كانت واحدة من خمس مدن فلسطينية (صموئيل : ١٧/٦) ، وهي تقع بين يافا وعسقلان ، وقد تدهورت أحوالها الآن واضمحلت فهي أشبه بقرية .

وبعدما مررنا بأرسوف وصلنا أخيرا الى مدينة يافا البحرية ، وهي في منطقة دان ، وفي تلك الأثناء رحب الفرنجة ببلدوين هناك واستقبلوه ملكا لهم ، ولم نتأخر هناك بل خففنا الخطى الى القدس ، وعندما شارفنا الوصول الى المدينة جاء السكان جميعا للترحيب ببلدوين ، وحضر رجال الأكليروس والأغريق والسريان بصلبانهم وشموعهم ، وصاحبوا موكبه الى كنيسة القيامة بكل أكبار وفرحة ، يرددون تراتيل الحمد للرب بأصوات شجية رنانة .

وتخلف عن الحضور والمشاركة البطريرك ديمبرت ، لأنه كان

موضع ربيبة من قبل رجال بلدوين ، الأمر الذي قاد الى سوء العلاقات بينهما ، وقد شعر غالبية رجال الأكليريوس بمشاعر البغض لديمبرت ، لذلك أقام في جبل صهيون ، محروما من ممارسة وظائفه وظل هناك حتى كفر عن خطايا الجسد الذي امتلكه .

وبعدما استرحنا عدة أيام وتخلصنا من متاعبنا ونلنا نصيبنا من الاستجمام مدة ستة أيام في القدس وهذا ما كنا بأمرس الحاجة اليه ، وبعدما صرف الملك بعض شؤونه أجرينا الاعدادات للتوجه في حملة جديدة ، واسمحو لي الآن أن أذكر شيئا عن طبائع بني البشر ، فعندي إنه يتحتم على كل من لديه أعداء أن يضيق الخناق عليهم من جميع الجوانب وأن يتشدد معهم بلا هوادة أو توقف حتى يقهرهم إما باضعافهم بالقتال أو يجبرهم بالقوة على طلب السلام .

حملة بلدوين على منطقة عربية :

ولهذا بادر بلدوين بالرحيل نحو عسقلان ، وكان على رأس رجاله عندما اجتاز أسود القائمة على الطريق بين يافا وعسقلان ، وهي إحدى المدن الفلسطينية الخمس ، وكانت الجامزية على يميننا على مقربة من بينا الواقعة على البحر ، وعندما اقتربنا من عسقلان خرج بعض أهلها الى قتالنا فصددناهم بكل شدة ورددناهم الى خلف الأسوار ، وعندما وجدنا أن لفائدة لنا من متابعة التقدم هنا رجعنا الى معسكرنا ، ونزلنا في خيمنا التي نصبت فيه .

ثم استأنفنا زحفنا في اليوم التالي داخل تلك الديار حيث عثرنا على الأطعمة الكافية لنا ولدوابنا وكانت مناطق مزدهرة ، ولقد دمرنا بلاد الأعداء ، وتابعنا تقدمنا فوجدنا الكثير من القرى وقد

هجرها أهلها من المسلمين واصططحبوا معهم دوابهم و
مقتنياتهم ، ولجأوا الى الكهوف خوفا منا ، وعندما تعذر علينا
اخراجهم منها أشعلنا النيران امام مداخل الكهوف ، وسرعان
ماخرجوا منها بسبب الدخان المنبعث من النيران الواحد إثر
الآخر .

وكان بينهم لصوص اعتادوا على الكمين بين الرملة والقدس
وقتل المسيحيين ، وعندما أخبرنا بعض المسيحيين السريان الذين
وجدناهم معهم عن هؤلاء الأشقياء ، قطعنا رؤوسهم فور خروجهم
من المغائر ، وحافظنا على حياة هؤلاء السريان وزوجاتهم ، وفي
الواقع قتلنا مائة من المسلمين .

وبعدما أكلنا كل ماوجدناه هناك من قمح ومواشي والتهمناه ، ثم
بعدها لم نجد ماينتفع به وأكلنا اكثر اجتمعنا مع بعض السكان
المحليين الذين كانوا مسلمين من قبل ، غير أنهم اعتنقوا الآن
المسيحية ، واستوضحنا منهم مايعرفونه عن الأراضي الخصبة
والصحراء في الأحواز القريبة والبعيدة ، ثم قررنا الذهاب الى بلاد
وادي عربة ، فاجتزنا المنطقة الهضبية قرب مدافن الانبياء ابراهيم
واسحق ويعقوب ، ثم سارة ورفقة ، حيث رقدت اجداثهم بكل
جلال ، ثم وصلنا الى واد يبعد قرابة اربعة عشر ميلا من مدينة
القدس ، فهاهنا دمرت بحكم الرب مدينتنا سدوم وعمورة الخبيثتان
(تكوين : ١٩/٢٤ - ٢٥) .

البحر الميت :

وهناك بحيرة كبرى ، تعرف باسم البحر الميت لأنها لاتحتوي
على أي شيء حي ، وهي تمتد خمسمائة وثمانين استادا طولاً ومائة
وخمسين عرضاً ، وهي شديدة الملوحة حتى أنه لايستطيع حيوان

ولاطير من أي نوع أن يشرب منها ، وقد عرفت أنا فولتشر هذا من التجربة ، وعندما ترجلت عن ظهر بغلي ، وتناولت غرفة من الماء بيدي لأجربه بالمذاق ، فوجدته أشد حرارة من الصبر الأسود ، وتتلقى هذه البحيرة الماء من نهر الأردن في الشمال ، وليس لها مخرج في الجنوب ، ولا ينبع فيها أي نهر ، وهناك على مقربة منها جبل عظيم وشاهق من الملح ، يشبه صخرة طبيعية من الملح ، مع أنه يشبه الجليد في بعض أجزائه ، وفضلا عن ذلك أن الإنسان لا يستطيع الغوص في ماء هذه البحيرة حتى لو حاول ذلك ، وأحسب أن شدة ملوحة هذه البحيرة مردها إلى سببين : فهي أولا مستودع ملح الجبل تغسله أمواج الشاطئ بلا انقطاع ، وثانيها لأنها تتلقى مياه الأمطار النازلة من هذا الجبل ، أو لعل قعر البحيرة سحيق إلى درجة أن البحر العظيم - وهو مالح - يجري تحت الأرض إلى هذه البحيرة بشكل غير منظور .

وسرنا على طول الطرف الجنوبي حول البحيرة ، فوجدنا قرية (سيفور) طيبة الموقع ، غنية بثمار النخيل ، التي يدعونها الرطب ، وقد أكلنا منها طوال النهار ، واستمتعنا بطعمها اللذيذ ، ولم نجد هناك شيئا آخر ، وكان سكان المنطقة من المسلمين قد هربوا لدى سماعهم الأقاويل عن قرب وصولنا ، ولم يبق إلا الذين فاقوا الهباب سوادا ، فتركناهم هناك ، وعاملناهم بازدراء كما لو كانوا من عشب البحر .

وقد رأيت بعض الأشجار التي تحمل ثمرا (تفاح البحر الميت) وجمعت بعضها بهدف معرفة ماهيتها ، وبعدما انتزعت قشرتها ، رأيت مسحوقا أسود بداخلها ، وقد تصاعد منها دخان .

ثم دخلنا إلى جبال بلاد عربية ، وأمضينا الليلة في كهوف

هناك ، وعندما تسلقنا الجبال في صباح اليوم التالي ، وجدنا على الفور عدة قرى ، غير انها كانت خاوية على عروشها ، ليس فيها مايفيد او ينفع لان اهلها كانوا قد هجروها لدى سماعهم بقدمنا ، واختبأوا مع مقتنياتهم في مغائر في جوف الأرض هناك ، ولهذا لم نحصل هنا على أي فوائد ترحى .

وتابعنا سفرنا بدون تأخر نحو مناطق أخرى وسارت طلائعنا أمامنا على الدوام ، ثم وقفنا على واد غني بثمرات الأرض ، انه الوادي نفسه الذي ضرب فيه النبي موسى ، بإيحاء من الرب ، الصخرة مـرتين ، ففـاض منها ماء الحياة (العدد : ١١/٢) ويتدفق هذا النبع بغزارة لاتقل الآن عن ذلك الزمان حتى أن اصحاب الأرحية في تلك البلاد يستعينون بتيار ماء النبع للطحن ، ولقد سقيت دوابي من هذا النبع .

ثم وجدنا على رأس الجبل مقام النبي هارون ، حيث كلم موسى وهارون الله (العدد : ٧ / ٢٠ - ١٢،٨ / ٢٣ / ٢٦) وقد اثلج صدورنا وأفرحنا كثيرا مشاهدة مكان على هذه الدرجة من القداسة لم يكن معروف لدينا ، ولم نرغب في التقدم اكثر في مسيرتنا لان تلك الأراضي كان صحراء جرداء .

وامضينا ثلاثة ايام في ذلك الوادي الغني بكل شيء ، امضيناها في متعة وراحة وغذينا دوابنا بالأطعمة ، وبعدما حملناها بما يلزمنا من مؤن ، صدحت أبواق الملك في الساعة الثانية من اليوم الرابع ايذانا ببداية رحلة العودة .

وسرنا في طريق العودة مثلما اتينا على مقربة من بحيرة اسفلت ، ومررنا بقبور الأنبياء الذين اتينا على ذكرهم ، ثم مررنا ببيت لحم والمكان الذي ترقد فيه راحيل ، ووصلنا الى القدس بسلام في يوم الانقلاب الشتوي ، عندما كان قد تم اعداد صولجان يليق

بتتويج الملك ، وتم التصالح بين ديمبرت واللورد بلدوين وسماد الوثام بينهما وبين عدة من رجال الأكليروس في كنيسة القيامة ، ذلك ان رجالا من أصحاب الحكمة سعوا في سبيل المصالحة وبذلك زالت اسباب الخصام وانتهى .

تتويج الملك بلدوين وصغر حجم مملكته :

في العام ١١٠١ لتجسيد الرب ، وفي يوم الاحتفال بميلاده جرى تتويج بلدوين ورسمه ملكا ، وذلك من قبل البطريرك المذكور وبحضور الاساقفة ورجال الأكليروس، والناس في كنيسة مريم المباركة في بيت لحم ، ولم يجر هذا لأخيه الذي تقدمه ، لأن غودفري لم يرغب بذلك ، وكثير من الناس لم يحبذوا ذلك ، لكن بعد التبصر في الأمر والامعان وتقليب الآراء تمت الموافقة على ضرورة ذلك .

لقد قالوا : ماهو وجه الاعتراض ، أولم يعامل مولانا المسيح بالاساءة والمهانة مثل اي مجرم ثم توج بتاج من الشوك في القدس ، وأعطى روحه طوعا للموت في سبيلنا ، غير ان تاجه لم يكن في أعين اليهود رمزا للعزة الملكية والشرف بل للخزي والعار ، بيد أن ما فعله هؤلاء القتل كإهانة له تحول ببركة الرب الى خلاص لنا ومجد . ثم ان الملك لا يصبح ملكا بغير ارادة الرب ، واذا ما جرى اختياره بالطرق الصحيحة ، ووفق ارادة الرب فانه يقدس ويرسم بالبركة والشرعية ، وكل من يحظى بالسلطة الملكية والتاج الذهبي ، يأخذ على عاتقه انذ الواجب المقدس بإقامة العدل ، ويندرج عليه وعلى الأسقف في رعيته القول التالي : « على من يطلب الحكم أن يرغب في أداء العمل الصالح ، لأنه اذا لم يحكم بالعدل لن يكون ملكا حقيقيا »

وملك بلدوين في بداية عهده بضعة بلدان وقليل من الناس

فقط ، وقد دافع خلال ذلك الشتاء عن مملكته ضد الأعداء من كل صوب بكل بسالة ، وعندما تيقنوا من مهارته الفائقة في القتال ، على الرغم من قلة تعداد رجاله ، لم يقدموا على مهاجمته ، ولو تيسر له عدد اكبر من المقاتلين لواجه الأعداء بكل سرور .

وفي تلك الاثناء كانت الطريق البرية مغلقة في وجه حجاجنا ، ولم يكن قد تيسر فتحها بعد ، وقدم الحجاج في تلك الآونة من فرنسا وانكلترا وايطاليا والبندقية عبر البحر الى يافا ، التي لم نمتلك مرسى غيرها ، وجاء هؤلاء الحجاج بكل وجل ورهبة ، على ظهر سفن وصلت فرادى او في مجموعات تألفت من ثلاث سفن او اربعة ، كانت تشق طريقها وسط عدد كثيف من القراصنة المعادين في جميع الموانئ الاسلامية ، وكان الرب يرشدهم ويدهم على الطريق .

وعندما رأيناهم قد وصلوا من بلداننا في الغرب ، استقبلناهم على الفور بكل ترحاب كما لو انهم من القديسين وسألهم كل واحد منا عن بلاده وآله وأحبائه ، ولكم سررنا لسماع الأخبار الطيبة وحزننا لسماع أخبار المصائب، ثم قدموا الى القدس ، وزاروا قدس الأقداس ، وكان هذا مرادهم .

وبعد ذلك بقي بعضهم في الأراضي المقدسة ، بينما عاد الآخرون الى ديارهم ، ولهذا بقيت الأراضي المقدسة خلوة من السكان ، ولم يوجد فيها ما يكفي من الناس للدفاع عنها لو أن المسلمين أقدموا على مهاجمتنا .

ويتساءل المرء لماذا لم يقدموا ، لماذا خشيت جميع هذه الأمم وهذه الممالك من مهاجمة مملكة صغيرة وشعب قليل العدد ، ثم لماذا لم يحشدوا من مصر ومن فارس والجزيرة والعراق وسورية مائة

ضعف ، اي مائة الف مقاتل ليزحفوا علينا بشجاعة مادمنانحن اعداؤهم لماذا لم يدمرونا ويلتهمونا مثل جراد يفوق الحصر هجم على حقل صغير ، وبذلك يمحوون ذكرنا من على وجه هذه الأرض التي كانت ملكنا منذ الأزل ؟ ذلك أننا لم نمتلك في ذلك الوقت أكثر من ثلاثمائة فارس ومثلهم من الرجالة للدفاع عن القدس ويافا والرملة ومدينة حيفا الحصينة ، ولم نكن انذاك نجرؤ على جمع فرساننا جميعا إذا مارغبنا بحملة ضد عدونا ، خشية من ان يهجم في تلك الأثناء على بعض قلاعنا المهجورة .

إنها حقا لمعجزة عجائبية واضحة لكل من يبصر فلقد عشنا وسط الاف مؤلفة من الأعداء وقهرناهم وجعلنا بعضهم أتباعا لنا ودمرنا غيرهم نهبا وأسرا ، فمن أين جاءت هذه المزية ، ومن أين صدرت هذه القوة ؟ حقا إنها من عند الرب الواسع المقدرة ، الذي التفت نحو قومه الذين جاهدوا من أجل اسمه ، وأعان برحمته الذين اتكلوا عليه أثناء محنتهم ، وقد وعد الرب ان يجزي بالمجد السرمدي في الحياة الآتية من يسعدهم بالقليل من متاع الدنيا .

ما اجدر ذلك الوقت بالذكرى ، لقد استببت بنا الأحزان مرارا ، عندما لم نستطع الحصول على العون من أصدقائنا عبر البحار ، وكنا نخشى ان يعرف العدو بقله عدونا فينقض علينا دفعة واحدة من جميع الجهات بهجوم مفاجيء ، ذلك أنه لم يكن هناك من يمد لنا يد العون غير الرب ، ولم نكن بحاجة إلى شيء إذا ماتوفر لنا الرجال والخيل ، ولم يتمكن الرجال الذين قدموا إلى القدس بحرا ان يصطحبوا خيولهم ، ولم يأت أحد عن طريق البر ، ولم يتمكن أهل انطاكية من مد يد العون لنا ، كما لم نستطع أنفسنا ان نفعل الشيء نفسه إليهم

استدعاء تانكرد إلى انطاكية

وفي شهر آذار سلم تانكرد إلى الملك بلدوين حيفا وطبرية التي كان قد تملكها ، وتوجه إلى انطاكية ، فقد كان أهل انطاكية قد أرسلوا الرسل إليه يقولون : ، لا تتأخر بل تعال إلينا حالا ، لتتولى الحكم علينا ، ولتتملك مدينة انطاكية والبلاد التابعة لها حتى يعود بوهيموند مولانا ومولاك من الأسر ، فأنت من آله ، وأنت أيضا بصير بعواقب الأمور خبير بالحروب ، وأنت أقوى منا وأقدر على الدفاع عن هذه البلاد ، وإذا ما عاد الأمير بوهيموند فسنفعل ما يلزم ، ، وعندما قدموا هذا المطلب إليه ، استجاب لهم .

حصار قلعة أرسوف والاستيلاء عليها :

امضى أسطول من السفن الإيطالية والجنوية فصل الشتاء ذاك في ميناء اللانقية ، ومع اطلالة الربيع واعتدال الطقس وغنوه موانئها للايجار اقلع رجال هذا الاسطول نحو يافا تدفعهم ربح طيبة ، وفي ميناء يافا استقبلهم الملك بكل حفاوة ، و لاقترب عيد الفصح ولاعتياد كل من استطاع الاحتفال بهذه المناسبة ، ارسوا سفنهم وتوجهوا الى القدس بصحبة الملك .

وعندما لم تظهر النار المقدسة في كنيسة القيامة اثناء الاحتفال بسبت النور ، أصيب الجميع بحزن كبير ، ثم تقرر انه مادام أهل جنوى يقيمون في الأراض المقدسة حبا بالرّب ، إذا ما استولوا بمساعدة الملك وموافقته - على أي مدينة شرقية ، فلهم ثلث ما يتم الحصول عليه من الأعداء من المال خالصا لهم ، وللملك الثلثين الآخرين ، كما ويحق لأهل جنوى ان يملكوا إلى الأبد ، وبشكل شرعي وموروث حيا في أي مدينة يتم الاستيلاء عليها بهذه الطريقة و بعدما أقسم الجميع على ذلك و اتفقوا عليه ، شرعوا على الفور في

محاصرة المدينة التي تدعى أرسوف ، بحرا وبرا ، وعندما أدرك السكان من المسلمين عجزهم عن الدفاع عن أنفسهم ضد المسيحيين تفاوضوا بحنكة مع الملك واستسلموا له في اليوم الثالث ، ثم غادروا المدينة مصطحبين معهم كامل أموالهم ، وأعطى الملك الأذن بالسفر بأمان للذين غادروا إلى عسقلان مكسوري خاطر .

ثم قدمنا الشكر للرب بحبور ، لأننا تمكنا من الاستيلاء على هذا الموقع الحصين بدون خسائر بالأرواح ، فقد كانت مصدر خطر عظيم علينا ، وكانت هذه الأماكن المنيعة التي شيدها النبي سليمان مصدر خوف شديد بالنسبة لنا ، حيث أن اللورد غودفري كان قد حاصرها قبل سنة ، ولم يستطع الاستيلاء عليها ، وقد قتل أهلها عددا كبيرا من قومنا ، وسببوا لنا المزيد من التعاسة والآلام .

واشتبك الفرنجة أثناء الحصار مع المدافعين عن المدينة بالأيدي ، وتمكنوا من الاستيلاء على عدد من الشرفات في أعلى السور ، ومدوا جسرا خشبيا على برج من الخارج إليها ، لكن سوء الطالع شاء أن ينهار البرج والجسر ، ويتحطما بسبب الأعداد الكبيرة من الرجال الذين تسلقوهما ، ونتيجة لهذا أصيب نحو من مائة من الفرنجة بجراح شديدة واحتفظ المسلمون بعدد من الفرنجة أسرى لديهم هناك ، وصلبوهم على مشهد من الجميع ورموهم بالنشاب ، كذلك قتلوا آخرين منهم لكنهم احتفظوا ببعضهم أحياء في أسر تعيس .

وصف الاستيلاء على قيسارية :

بعدما وضع الملك حامية مناسبة في أرسوف حسبما اقتضت الحاجة ، زحف ضد قيسارية فلسطين والقى الحصار عليها ، غير أنه عجز عن الاستيلاء عليها فورا لمناعة أسوارها ، فأمر بصنع

بعض المجانيق مع برج مرتفع جدا ، شديد من صواري السفن ومجاديدها ، ويخيل إلي أن البرج كان ارتفاعه يزيد على عشرين ذراعا فوق السور ، وذلك بعدما فرغ النجارون من بنائه ، وكان الهدف من ذلك تمكين جنودنا من قذف العيو بالحجارة والسهم ، طبعا بعد الصاقه بالأسوار ، وأذاك إذا ما استطاع رجالنا اقضاء المسلمين عن السور بهذه الوسيلة ، فلسوف يتمكنون من الدخول إلى المدينة والاستيلاء عليها .

وشدد الفرنجة الحصار على قيسارية وداوموا الهجوم عليها لمدة خمسة عشر يوما ، تمكنوا خلالها من تدمير بعض مواقع الدفاع العالية من السور ، وذلك بفضل مجانيقهم ، وهنا غلب عليهم الحماس الديني ، ولم يملكوا الصبر للانتظار أكثر مما انتظروا ، وفي يوم الجمعة استطاعوا اقتحام المدينة بدروعهم ورماحهم ، ولم يحتاجوا إلى استخدام البرج الخشبي الذي شيده .

وقاتل المسلمون دفاعا عن انفسهم بكل ما أوتوا من شجاعة ومقدرة ، وشجعوا بعضهم بعضا على المقاتلة والصبر ، غير أن الفرنجة وربهم يسوع ، بادروا إلى نصب السلاالم التي اعدوها لهذا الغرض وتسلقوا إلى اعالي السور ، ثم اعملوا سيوفهم قتلا في كل من صدقوه في طريقهم ، وعندما شهد المسلمون شجاعة رجالنا وإقدامهم ، وبعدها أيقنوا أن مدينتهم قد سقطت ، هربوا باتجاه الأماكن التي خيل إليهم أن حياتهم سستطول بها أكثر ولو قليلا ، ولكن عبثا فعلوا فقد أتلفناهم وسقيناهم كأس المنون الجديرة بهم .

ولم نستبق إلا على عدد ضئيل من الذكور ، لكننا احتفظنا بكثير من النساء ، حيث من الممكن الافادة منهن ، على الأقل في تحريك الطواحين ، وجرى بيع الأسرى من النساء بين الفرنجة الجميلات منهن والقبيحات ، وكذلك فعل بالذكور أيضا .

وحافظ الملك على حياة حاكم المدينة وحياة أسقفها الذي دعاه المسلمون باسم القاضي ، وقد قام بذلك رغبة منه بالحصول على الفدية ، وليس بدافع الشفقة أو المحبة ، وأنا عاجز عن وصف كمية الذخائر من مختلف الأنواع والمقتنيات التي وجدناها في المدينة ، ولعله يكفي للبيان أن عددا كبيرا من رجالنا صاروا أغنياء بعد الفقر .

وشهدت عددا كبيرا من جثث المسلمين الذين قتلوا هناك ، وقد جمعن في كومة كبيرة وأضرمت فيها النيران ، وقد ضايقتنا كثيرا روائح الجثث المهترئة ، وتم حرق هذه الجثث التعيسة للحصول على الدنانير التي ابتلعها أصحابها أو خبأها بعضهم في أفواههم تحت لثتهم حتى لا يستولي الفرنجة على ما هو حق لهم ، وقد حدث مرة أنه عندما كان واحد من رجالنا يضرب بقبضته أعناق بعض المسلمين سقط من أفواههم مابين العشرة دنانير إلى الستة عشر دينارا ذهبيا ، وأخفى بعض النسوة الدنانير الذهبية دون حياء داخل أحشائهن بطريقة بشعة يمنعني الحياء من ذكرها .

في عام الف ومائة وواحد
استولينا على قيسارية بتسلق السلالم
استولينا على برج ستراتون حسبما عرفت المدينة .

انتخاب أسقف لقيسارية :

بعدهما فعلنا نحن وأهل جنوى كل مارق لنفوسنا في قيسارية ، واستولينا على كل ما وجدناه فيها ، رسمنا فيها أسقفا اخترناه معا ، ثم خلفنا حامية صغيرة من عدة رجال لحراسة المدينة ، وبادرنا بالعودة إلى الرملة ، وعلى مقربة من اللد توقفنا لمدة أربع وعشرين ساعة توقعنا خلالها أن يهاجمنا رجال عسقلان وباب اليون القاهرة الذين كانوا قد احتشدوا لهذه الغاية ، ولم نتجرا

على قتالهم لقلعة عددنا ، وخذشينا إن نحن قاتلناهم في عسقلان ان يستدرجوننا للدخول بين أسوارها وقلعها ، حتى إذا ما فعلنا ذلك أبادونا ، ونظرا لأننا كنا على بينة من مكرهم ، تفحصنا أساليب قتالهم حتى وقفنا على خديعتهم ، لكن ما لبثت معنوياتهم ان هبطت خوفا ، ويذسوا من الهجوم علينا ، وفقد أكثرهم صبره لطول الانتظار ، ولنقص المؤن ، فكان أن فروا من المعسكر ، ولما علمنا بذلك ، عدنا إلى يافا شاكرين للرب على نجاتنا من هجومهم .

قتال شديد بين الأتراك والمسيحيين - انتصار
المسيحيين :

وبعد انتظار طال سبعين يوماً كنا خلالها نرقب حركات العدو ونستمع إلى أخباره ، بلغت الأخبار إلى الملك أن الأعداء بدأوا بالتحرك نحونا بنوايا شريرة ، وأنهم أعدوا العدة للهجوم ، وما أن سمع الملك بهذا حتى جمع قواته فوراً من القدس وطبرية وقيسارية وحيفاً ، ولحاجتنا الماسة إلى الفرسان أمر الملك كل من استطاع من حملة الترسة أن يكونوا فرساناً ، وهكذا بات عدد فرساننا قرابة المائتين وستين فارساً ، ورجالتنا نحو تسعمائة ، علماً بأنه توجب علينا منازلة أحد عشر ألف فارس ، ونحو من واحد وعشرين ألفاً من الرجال ، ولقد كنا على بينة من هذا كله ، ولكن لأننا آمننا أن الرب كان معنا ، لم نخف من الزحف ضدهم ، فنحن لم نثق بأسلحتنا ولا بأعدادنا بل وضعنا ثقتنا كلها في مولانا وربنا ، وهكذا كانت شجاعتنا هائلة ، غير أنها لم تكن أقدام طائش بل إيمان ومحبة ، وقمنا بكل همة وشجاعة بالاستعداد لنموت في سبيل الرب الذي رضي أن يموت من أجلنا .

شعر :

واندفعنا بكل شجاعة مستعدين للقتال او الموت

وحمل الملك خشبة صليب الصليبوت ، مما اوقع الطمأنينة في نفوسنا ، وتركنا يافسا في أحد الأيام ، وفي اليوم التالي حاربنا الأعداء ، وعندما زحفنا نحوهم كانوا بدورهم قد اقتربوا منا دون أن ندرك ذلك ، ولدى مشاهدتنا لطلانهم وقد اقتربت من مواقفنا ادركنا أن بقيتهم لاحقة بهم ، وهنا تقدم الملك وحوله بعض رجاله إلى الأمام ، فشاهد عن بعد معسكرهم العملاق يشع في السهل ، فلكز فرسه وعاد إلينا إلى الخلف ليخبرنا بصورة مراه .

وعندما عرفنا أن القتال لابد واقع ، بدأنا نهل فرحا فقد كنا نتلهف للمعركة ، وعزمنا أن نهجم على العدو إن هو لم يتقدم نحونا ، فقد كان من المناسب لنا القتال في المنبسط ، ثم إن أعداءنا إذا ماهزموا - بعون الرب - فسيطول فرارهم ، ولسوف تلحق بهم خسائر أشد فداحة مما لو قاتلناهم قرب أسوارهم ، وأمرنا الملك بإعداد أسلحتنا ، ثم اصطففنا بالشكل الموائم للمعركة ، وتوكلنا على الرب ثم سقنا خيولنا نريد العدو ، وكان الملك قد اختار واحدا من رعاة اديرة الرهبان لحمل خشبة صليب الصليبوت على مشهد من الجميع .

وهنا خاطب الملك جنوده بجلال وخشوع قائلا : هيا يا جنود المسيح ، افرحوا ولا تخشوا شيئا ، تصرفوا بكل رجولة ، وكونوا شجعانا بالمعركة ، إنني أحتكم على أن تقاتلوا في سبيل خلاص نفوسكم ، وأن تمجدوا حيثما كنتم اسم المسيح الذي دنسه دوما وحقره هؤلاء القوم الفاسدون ، فهم لا يؤمنون بتجسيده ولا بصعوده ، وإذا ما واجهتم حتفكم هنا فيقينا ستكونوا من المباركين ، فقد فتحت ابواب مملكة السموات لكم ، وإن أنتم بقيتم

أحياء وانتصرتم فلسوف يتسألن اسمكم بالمد والرفعة بين
المسيحيين جميعا ، وإذا ما رغيتم بالفرار فتذكروا أن فرنسا تبعد
مسافة نائية جدا عن هذا المكان .

وبعدما اصغى الجميع إليه وافقوه على جميع ما قال .

شعر :

واندفعوا إلى القتال إذ لم يطيقوا الصبر والانتظار

وكان كل منهم يفتش عن يضربه بالسيف أو يطرحه أرضا
واغار علينا هؤلاء القوم أهل الخسة من اليمين ومن اليسار ، ومع
أن رجالنا كان تعدادهم قليل ، فقد انقسموا في المعركة إلى ستة
صفوف وانقضوا على فيالق الأعداء وحشوده المتدفقة كما ينقض
الصيدون على تجمعات الطيور ، وهم يصرخون « عونك يا
رب » ولم يعد بمقدور انسان تمييز أحد من رفاقه أو معرفته لكثرة
تعداد العدو ، ولأن رجاله عاجوا فورا بيننا وماجوا من حولنا .

ولما رأى الملك أن الأعداء قد صدوا أول صفين من صفوفنا
وقهروهما ، استدعى على عجل بعض النجيدات من المؤخرة ، ثم إنه
عندما رأى تدفق قوات العدو وكثرتها وتفوقها انطلق على ظهر
حصانه بأقصى سرعة ممكنة ومع سريره ، وتصدى لهجوم الكفار
بكل شجاعة ، وزحف قدما يقاتل قوات العدو المتفوقة ويدفعها ،
ورأيته البيضاء ترفرف فوق عربته ، وقد أطلقها مرة فاخترقت عربيا
كان مقابلا له ، وظلت الراية في بطن العربي ، بعدما طرح أرضا من
على ظهر حصانه ، ولقد رأيت بلدوين بنفسه وهو يقتلع حربته
ويحملها ليفتك بالآخرين .

وقاتل الطرفان في المواجهة بكل شجاعة ، فبعد مضي ساعة على بدء القتال كنت ترى كثيرا من الخيول وقد فقدت فرسانها من بين الطرفين المتواجهين ، ونظرنا إلى الأرض فإذا هي تدهرت بغطاء كثيف من الدروع والترسة والخناجر والجعب والقسي والنبشاب وبالمسلمين والسودان وقد فارقوا الحياة ، أو أصيبوا بجراح مميتة ، وبالفرنجة لكن بأقل عدا .

وكان صليب المخلص المقدس معنا ، جبارا ضد أعداء المسيح ، لم تنجح ضده ببركة الرب كل عنجهية الكفار ، فقد صدع هذا الصليب قلوبهم ، لهذا لم يكتفوا بالتوقف عن الهجوم علينا ، بل بادروا بالهرب وقد لحق بهم الخزي والعار ، وفقط نجا منهم من امتطى فرسا سريعا .

ومن المضمي تعداد الترسمة والمقذوفات والقسي والسهام التي القى بها الهاربون أثناء فرارهم ، ويستحيل على المرء تعداد جثث القتلى المطروحة هناك حتى لو أراد ذلك ، ويحكى أن خمسة آلاف من فرسانهم ورجالتهم لاقوا حتفهم هناك ، حتى ليقال إن قائد الجيش المصري الذي قاد القتال قد قتل مع الآخرين ، وفقدنا نحن ثمانين فارسا وأكثر من ذلك من الرجالة ، وقد تصرف الملك في ذلك اليوم بمنتهى البسالة ، وكان أعظم مصدر بعث الطمأنينة في نفوسنا ، واتضح مصير المعركة بسرعة ، ولذا الأعداء فورا بالفرار ، وطاردناهم بدون توقف .

كيف هلك المسيحيون هناك:

أيتها الحرب ما ابغضك بالنسبة للأبرياء وكم أنت مرعبة للمشاهدين ، الحرب قبيحة حتى وإن وصفها بعض الشعراء بالجمال ، لقد شهدت القتال ، وكنت أن أصاب بالدوار ، وخذشيت

ان اصاب بضربة ، واندفع الجميع إلى القتال كما لو انهم لم يخافوا الموت ، وتقع الكوارث المنيعة حيث تنعدم المحبة ، وتعالى الضميج يصم الأذان من تبادل الضربات والطعنات : سدد رجل ضرباته فخر عدوه ميتا ، ولم يعرف أي انسان شفقة ، ولم يطلب عدوه شيئا منها ، فقد امرؤ يدا ، وفقد عدوه عينا ، ويصاب الفكر البشري بالشلل لدى رؤية هذه التعاسة ، ومع هذا يبعث السرور في نفسي ان أنكر ان جيشنا قد انتصر في المقدمة ، لكنه عانى من الهزيمة في المؤخرة ، فهناك سقط المسيحيون صرعى ، غير أنهم قهروا المسلمين في المقدمة ، وطاردناهم حتى أبواب عكا ، بينما ساق بعضهم إلى يافا حيث قتلوا بعض رجالنا ، وهكذا لم يعرف أحد مصير المعركة في ذلك اليوم .

وبعدما خلا ساح المعركة من المسلمين بالقتل والمطاردة اصدر الملك أوامره بأن نقضي ليلتنا في الخيام التي تخلى عنها الهاربون ، فأطعنا أوامره .

في اليوم السابع من ايلول
قاتلنا في هذه المعركة الجديرة بالذكر
حيث اعانت القدرة الربانية الفرنجة

تقلب المصائر في هذه المعركة :

اجتمعنا في اليوم التالي في فسطاط الملك ، وسمعنا قداس ميلاد السيدة مريم البتول ، الذي وافق ذلك اليوم المبارك ، ثم أثقلنا دوابنا بما غنمناه من أعدائنا ، مثل الخبز والقمح والطحين ، وذلك بالاضافة إلى خيامهم ، وبعد ذلك صدحت الأبواق الملكية معطية اشارة العودة إلى يافا .

وعندما عدنا أدراجنا ، اجتزنا بمدينة اسدود ، خامسة مدن

الفلسطينيين وهي الآن مهجورة وتدعى بينا (كذا) وهناك شاهدنا قرابة خمسمائة عربي قادمين نحونا في طريق عودتهم من يافا ، وكان هؤلاء قد شقوا طريقهم نحوها في يوم المعركة ولقد استولوا على كل ما وجدوه خارج المدينة ، ذلك أنهم أمعنوا قتلا برجالتنا في ساقية جيشنا ، وأبادوا نهائيا واحداً من صفوف ميمنتنا ، وخيل إليهم أن مقدمتنا قد قضى عليها كالساقية ، وانتزعوا الدروع والرماح والخوذ اللامعة من القتلى وزينوا أنفسهم بها بكل غطرسة ، وساقوا بسرعة إلى يافا بغية عرض أسلحتنا على رجال المدينة قائلين : إن الملك ورجاله قد أביدوا عن بكرة أبيهم في المعركة .

ولدى سماع الذين تخلفوا بيافا للحراسة هذه الأنباء ارتبكوا وعظم خوفهم ، وصدقوا كلام العرب الذي حمل دلالات الصدق ، وخيل للعرب أن أهل المدينة المرعوبين سوف يسلمون المدينة إليهم بالحال ، لكن خططهم أخفقت ، وعندما رأوا أنهم لم ينجزوا شيئاً شرعوا بالانسحاب نحو عسقلان .

وعندما رأنا العرب متوجهين نحو يافا ، خيل إليهم أننا بعضاً من جماعتهم الذين رغبوا بعدما أبادونا في القتال ، في تعقب بقية المسيحيين القاطنين في يافا ، وقد تحيرنا كيف أنهم أقبلوا نحونا على هذا الشكل ، دون أن يدركوا أننا فرنجة ، وظل الحال هكذا حتى فاجأهم فرساننا فانقضوا عليهم بهجوم صاعق ، وحبذا لو رأيت أعداءنا فجأة يفرون ويتبعثرون في كل اتجاه لايلوي الواحد منهم على الآخر ، ومن لم يملك منهم فرسا سريعا قطعت رأسه في الحال ، غير أن الفرنجة لم يطاردوا العرب لأنهم كانوا منهكين ، هدهم التعب وأصيب العديد منهم بجراح أثناء القتال ، وهكذا هرب هؤلاء ، في حين تابعتنا سيرنا نحو يافا مسرورين .

رسالة أهل يافا إلى تانكرد أمير انطاكية :

لك أن تتصور التهليل وصلوات الشكر التي انبعثت من الذين كنا قد خلفنا في يافا ، ساعة رؤيتهم لنا ، من فوق الأسوار ، ونحن عائدون وراياتنا خفاقة ، يقينا إن الحديث عن ذلك ليس بالأمر الهين ، فقد كان اثنان من نقلة الأقاويل غير الصحيحة قد وصلا سريعا إلى يافا الواحد تلو الآخر ، وخدعا أهل المدينة بأخبارهم أن الملك ورجاله قد أبيدوا عن بكرة أبيهم ، فصدق هؤلاء ذلك ، وبادروا ببعث رسالة موجزة إلى تانكرد الذي كان يحكم في انطاكية آنذاك ، وجاء ذلك بأمر من زوجة بلدوين ، وحمل الرسالة بحار كان على وشك الاقلاع في سفينته .

ونصت الرسالة على التحيات والكلمات التالية :

« تانكرد أيها الرجل اللامع ، والجندي الباسل ، إليك هذه الرسالة الموجزة من أهل يافا ، أي من الملكة وسكان المدينة ، يرسلونها إليك على عجل بواسطة أنا ، كمنذوب رسمي لهم ، أرجو أن تقرأها بتمعن حتى يمكن أن تصدق ما فيها ومن ثم لتصدق أقوالي : يالهل الكارثة ، أصيب ملك القدس الذي اشتبك بالقتال ضد المصريين وأهل عسقلان بهزيمة ساحقة ، ولعله قتل مع رجاله برمتهم في لجة المعركة ، وذلك أن الذين نجوا بشق الأنفس من شؤم تلك النكبة ، وفروا إلى يافا قد أخبرونا بذلك وبتفاصيل ما جرى .

وإنني أذ أرسل بمنذوب إليك وأنت الرجل الحكيم طالبة العون ، أتوسل إليك أن تدع كل شيء جانبا ، وأن تبسار بدون تمهل لمد يد المساعدة إلى شعب الرب المتذللين في محنتهم العظمى ، فهم الآن كما أرى قد شارفوا على نهاية حياتهم . »

كان هذا نص الرسالة ، وقد لاز تانكرد بالصمت للوهلة الأولى لدى

سماعه بما جاء بها ، وما لبث أن أمن بصدق ما نقلته إليه ، لهذا
اجهش بالبكاء بكل حرقة ، وشاركه بذلك كل من كان معه لحزنهم
ولشعورهم بالكارثة ، وما لبث أن أعطى تانكرد جوابه لحامل
الرسالة وشرع بالأمر بأعداد العدة في كل دياره لتقديم المساعدة ومد
يد العون لأهل القدس :

وعندما بات تانكرد على أهبة الانطلاق نحو القدس ، وصل إليه
رسول آخر ينقل إليه بشكل مفاجيء رسالة يختلف محتواها عن
الرسالة المتقدمة ، وأوصل إليه الرسالة ، ففي حين تحدثت الرسالة
الأولى عن الكارثة ، تحدثت الثانية عن حسن الحظ وعن السعادة ،
وذكرت أن الملك قد عاد سالما معافى إلى يافا ، وأن المسلمين لحقت
بهم هزيمة مروعة بكل تأكيد ، فسر الذين حزنوا من قبل سرورا
عظيما .

إننا لم نهزم الأعداء بكثرة عدد رجالنا ، بل بثقتنا بالمقدرة
الربانية ، فيا لروعة رحمة الرب ، وهكذا عدنا إلى القدس بعدما
نجينا من عدونا ، عدنا ونحن نطلق الشكر والحمد للرب ، ثم
استرحنا مدة ثمانية أشهر بدون حرب حتى حلول فصل الصيف .

حشد جيش مصر ضد الفرنجة :

في منتصف شهر أيار من السنة التالية ١١٠٢ م احتشد أهل بباب
اليون (القاهرة) حول عسقلان بهدف ابادتنا نحن المسيحيين ،
فقد اندشد هناك نحو عشرين الف فارس وعشرة الاف راجل غدا
الجمالة الذين تسلحوا بالعصي والحرا ب ، يضاف إليهم جميعا كثيرا
من الدواب والحمير المحملة بالمؤن ، ووصل المصريون في أحد الأيام
إلى الرملة ، واقاموا معسكرهم امامها ، وقد واقفهم خمسون
فارسا كان بلديون قد تركهم في برج محصن في المدينة بهدف

حراستها ، وكان يسكن في ربض البرج بعض الفلاحين السريان ، وقد تحرش المسلمون بهؤلاء السريان المسيحيين ، وتعمدوا مضايقتهم بهدف القضاء عليهم ومن ثم تدمير البرج ، ذلك أنهم لم يتمكنوا من التجول بحرية في السهل هناك بسبب الرجال المدافعين داخل البرج ، وحاولوا مرة أسر أسقف المدينة الذي كان مقيما في كنيسة القديس جرجس مع أتباعه ، وقد طوقوا الكنيسة في أحد الأيام بنية سيئة ، غير أنهم رجعوا إلى الرملة بعدما تيقنوا من مناعة الموقع .

وعندما رأى الأسقف الدخان واللهب يتصاعدان من حقول القمح خاف أن يعود المسلمون ويحاصروه من جديد ، ولكي يدرا عنه المخاطر المستقبلية بعث على الفور رسالة إلى الملك في يافا يطلب منه امداده بالعمد بدون تأخير ، ذلك أن المصريين كانوا قد عسكروا على مقربة من الرملة ، وبعثوا من هناك بسرية من الجند لتطويق الكنيسة ومهاجمتها .

وما إن سمع الملك بذلك حتى بادر إلى حمل سلاحه وامتطاء فرسه ، ولحق به فرسانه بعدما أعطاهم أوامره وزعقت الأبواق ، وكان في يافا عدد كبير من الفرسان اختاروا عبور البحر والعودة إلى فرنسا ، وكانوا ينتظرون وقتها الريح المواتية للبحار ، ذلك أنه لم يكن لديهم خيول ، فقد كانوا قد فقدوا خيولهم في السنة المنصرمة أثناء عبورهم للأراضي البيزنطية وهم في طريقهم إلى القدس ، يضاف إلى هذا أنهم كانوا قد فقدوا كل ما كانوا يملكون ، هذا ويخيل لي أن نذكر هذا الكلام هنا لا يخرج بنا عن اطار الموضوع .

الحج الحزين الثاني للفرنجة ووفاة هيوغ العظيم ؛

كنا قد ذكرنا من قبل أنه عندما زحف جيش الفرنجة العظيم نحو

القدس كان بين الحشد وليم كونت بواتو وستيفن كونت بلوا ، وكان ستيفن قد هجر جيشنا في أنطاكية ، لكنه اراد الآن أن يعوض مما فاته ، فرجع وجاء معه ومع وليم هيوغ العظيم الذي كان قد عاد إلى غاليا بعد احتلال أنطاكية ، كما كان معهم ريموند كونت بروفانس الذي بقي في القسطنطينية بعض الوقت بعد عودته من القدس ، كما ورافقه النبيل ستيفن كونت برغندي وأعداد لا تحصى من الفرسان والرجال ، وحين ساروا انقسموا إلى مجموعتين .

وقاوم سليمان التركي الفرنجة في أسية الصغرى ، وكانوا قد انتزعوا منه مدينة نيقية من قبل ، وزحف سليمان الآن ، وقد تذكر هزيمته الماضية ، على رأس حشود عملاقة من الأتراك ، وشئتوا الفرنجة وأربكوهم حتى كادوا أن يبديدوا الجيش الفرنجي برمته .

وكان الفرنجة بتوفيق من العناية الربانية يسيرون في فرق موزعة على عدة طرق ، لهذا لم يتمكن سليمان من محاربتهم جميعا وإبانتهم عن بكرة أبيهم ، لكنهم وقد أدرك جهلهم باستخدام القسي بالحرب ثابر على مهاجمتهم ورميهم بالنشاب ، خاصة بعدما أضناهم التعب وهدهم الجوع والعطش ، ولذلك قتل منهم أكثر من مائة الف فارس وراجل .

زد على هذا لقد ذبح النساء وحمل بعضهن معه ، وهلك أعداد كبيرة من الفرنجة الذين هاموا فارين من الجبال من الجوع والعطش ، واستولى الأتراك على خيولهم وبغالهم ودوابهم وعلى مختلف انواع الامتعة التي كانت بحوزتهم .

وفقد كونت بواتو أمواله وحاشيته وكل ماكان بحوزته ، وبعد جهد طويل وصل إلى أنطاكية راجلا حزينا منقبض النفس ، واستقبله تانكرد استقبالا حسنا وعطف عليه واشفق في محنته فزوده من

ممتلكاته الخاصة « وهكذا تأديبا ادبني الرب ، والى الموت لم يسلمني » (المزامير : ١١٨ / ١٧) .

وبدا لنا ان مانزل به وبغيره كان بالفعل نتيجة لخطاياهم وغطرتهم ، هذا ولم يتقاعس الذين نجوا عن الذهاب الى القدس ، باستثناء هيوج العظيم الذي وافته المنية بطرسوس في كليكية وفيها دفن ، وكانوا عندما وصلوا الى انطاكية تابع بعضهم رحلته الى القدس برا وبعضهم الاخر بحرا ، وكان الذين حصلوا على خيول قد اثروا السفر برا .

الاستيلاء على مدينة طرطوس :

وعندما وصل الفرنجة الى طرطوس ، التي كانت بحوذة المسلمين ، لم يترددوا في الهجوم عليها برا وبحرا ، ويكفيني اخباركم انهم استولوا عليها وقتلوا المسلمين وصادروا اموالهم ، ثم تابعوا زحفهم بدون توقف ، وخابت امال الجميع وساء ظنهم بسبب بقاء الكونت ريموند في طرطوس فقد رغبوا في ان يرافقهم الى القدس ، ولهذا صب الجميع اللعنات عليه لانه رفض الزحف معهم واثّر البقاء في طرطوس محتفظا بها لنفسه .

وتابع هؤلاء زحفهم فمروا بعكار ثم بمدينتي طرابلس وجبيل حتى وصلوا الى الممر الضيق كثيرا قرب مدينة بيروت ، وكان الملك في انتظارهم هناك منذ ثمانية عشر يوما ، امضاها في حراسة هذا الممر حتى لا يحتله المسلمون ويحولوا دون عبور الحجاج ، وكان قبل ذلك قد استقبل وفدا من جيش الحجاج طلب منه المساعدة لدى اقتربه من ذلك الممر ، وعندما وجد الحجاج الملك في استقبالهم هناك قدموا له الشكر بكل حرارة ، وعندما تبادلوا التحيات والعناق شدوا الرحال الى يافا حيث نزل الذين سافروا بحرا الى اليابسة .

معركة مشؤومة بين الفرنجة والمسلمين ، قتل فيها الفرنجة وانتصر المسلمون :

ومع اقتراب عيد الفصح توجه الحجاج نحو القدس حيث كانوا حيث يتوقون لزيارتها ، وبعد اداء الطقوس المعتادة عادوا الى يافا ، ومن هنالك ركب كونت بواتو السفينة واجر مع قلة من اتباعه ، وقد دفعه الى ذلك ضيق حاله وشدة حاجته ، ورغب ايضا ستيفن كونت بلوا وعدد كبير غيره في ركوب البحر عائدين ، غير انهم واجهوا ريحا غير مواتية ، فلم يجدوا بدا من العودة راجعين على اعقابهم ، ولهذا السبب كان ستيفن في يافا كما سلف وذكرنا ، وذلك عندما امتطى الملك جواده وقصد العدو الذي عسكر امام الرملة .

وكان هناك ايضا غودفري كونت فاندوم ، وستيفن كونت بيرغندي وهيودي لوسنان اخو الكونت ريموند ، وقد استعاروا جميعا خيولا من اصدقائهم ومعارفهم وامتطوها ولحقوا بالملك .

وارتكب الملك عملا متهورا حقا ، وذلك انه اغفل الحذر فاندفع دون ان ينتظر رجاله وزحف الى القتال بشكل اعتباطي ، مع انه توجب عليه ان يكون اعقل من ذلك ، لقد سارع الى ملاقات العدو دون ان يصطحب رجالته ، لابل انه ماكاد ينتظر وصول فرسانه حتى القى بنفسه بطيش بين جموع العرب المحتشدين ، وكان يذيل اليه ان عدد الاعداء لايتجاوز الالف والسبعمئة ، لكن ساء تخمينه ومع هذا سارع الى ملاقاتهم حتى لايتمکنوا من الفرار .

غير انه عندما شاهد قوات العدو ، صاح مندهشا ، وشعر بالخوف ، لكنه مالبت ان استرد توازنه فالتفت نحو رجاله وخاطبهم بجلال : يا جنود المسيح ، ايها الرفاق ، لاتتوانوا عن القتال هنا ، بل حاربوا بشجاعة مسلحين بقوة الرب من اجل انفسكم ، فان عشنا

او متنا فللرب نحن ، (روميه : ٨ / ١٤) ولئن حدثت احدكم نفسه بالفرار فليس امامه امل بالنجاة ، وعليه ان قاتلتكم انتصرتكم وان فررتكم هلكتم .

وانقض الفرنجة على العرب بكل شجاعة وقاموا بهجوم عنيف ، ذلك ان المكان كان المناسب والمناسبة هي المناسبة لاطهار الشجاعة ، ولم يتجاوز عدد فرساننا المائتين ، وقد احاط بهم عشرون الفا ، وازداد ضغط المسلمين على رجالنا حتى ان معظمهم قد هلك في اقل من ساعة ، ولاذ البقية بالفرار بعدما عجزوا عن تحمل متابعة القتال الشديد .

ومع ان شرا مستطيرا نال رجالنا - لكن لم يحدث ذلك الا بعدما ثاروا لانفسهم تماما من اعدائهم ، فقد قتلوا عددا كبيرا منهم وشردهم من معسكرهم ، ثم حاقت الهزيمة برجالنا ، فتلك ارادة الرب - على ايدي الذين كانوا قد هزموا ، ويتوفيق من الرب تمكن الملك مع حفنة من ابرز رجاله من النجاة ، فقد لاذوا بالفرار ، واسرعوا الى داخل الرملة حيث اعتصموا فيها ذلك انهم لم يتمكنوا من المضي ابعد من ذلك .

فرار الملك بلدوين :

ولم يرغب الملك ان يقع في اسر احد او يبقى هناك ، لذلك اثر ان يلاقي حتفه في مكان اخر على ان يؤخذ بكل مذلة في ذلك المكان ، وبعد مشاورات حاول الفرار مخاطرا بحياته ، واصطحب معه خمسة مرافقين فقط ، لكنهم لم يمكثوا معه طويلا ، فقد اوقفهم العدو ، اما هو فقد بادر بالفرار نحو الجبال على متن فرس خفيفة الحركة رشيقة ، وهكذا انتشله الرب من ايدي اعدائه الذين فاقوه قوة ،

وكان العدو قد قطع طريق ارسوف عليه ، فلم يتمكن من الذهاب اليها مباشرة مع انه رغب بذلك .

ولم يستطع الذين خلفوا بالرملة مغادرة ابوابها ، فقد حاصرهم الكفار من جميع الجوانب ، ثم اسروهم ، فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم الآخر احياء .

وعندما سمع اسقف كنيسة القديس جرجس بحلول هذه الكارثة اذسحب خفية الى يافا . واحسرتاه كم خسرنا من نبلاء وفرسان شجعان في تلك الكارثة ! خسرناهم في الاشتباكات الاولى ، ثم اثر ذلك في البرج السالف الذكر ، فقد قتل ستيفن كونت بلوا ، الرجل النبيل الشجاع وكذلك ستيفن كونت برغندي .

وتمكن ثلاثة من الفرسان من النجاة بانفسهم من هناك ، وامتطوا خيولهم جادين الى القدس في الليلة التالية ، وكانوا قد اصيبوا بجراحات وضربات عديدة ، ولما وصلوا الى القدس اخبروا اهليها بالكارثة التي وقعت ، وانهم لم يعرفوا مصير الملك فيما اذا كان قد مات ام مازال على قيد الحياة ، وقد سببت هذه الاخبار الاسى والحزن الشديد للجميع .

كيف وصل الملك الى ارسوف هاربا :

اختبأ الملك في الليلة التالية في وسط الجبال وذلك خوفا من العرب وظهر في اليوم الثالث مع فارس واحد ومرافقه ، وهو يتجول دون ان يعرفه احد ، كما لو كان اي انسان عادي كان يعاني من الجوع والعطش في مجاهل الصحراء ، حتى دخل اخيرا الى مدينة ارسوف

وجاءت نجاة بلدوين بسبب الظرف التالي : كان هناك خمسمائة

من جنود الاعداء يتجولون حول اسوار المدينة بمهمة استطلاعية ،
وصدف ان انسحبوا قبيل وصوله بقليل ، ولو راه احدهم لما كان
بمستطاعه النجاة منهم .

واستقبل الرجال ملكهم بفرح عظيم عند دخوله الى ارسوف ،
وهناك اكل وشرب،ونام بكل امان فقد تطلب ذلك الجانب البشري من
طبيعته .

كيف بادر هيو صاحب طبرية وبطريك القدس الى نجدة
الملك، ثم كيف دار القتال بتدبير الصليب المقدس وعونه
وسلطانه :

تبصر : حضر في ذلك اليوم هيو صاحب طبرية الذي كان من اعظم
نبلاء الملك الى ارسوف ، فقد كان قد سمع بالشدة التي حاقت بالملك
ورغب في ان يجلب بعض العون والمواساة للذين بقوا على قيد
الحياة ، وسر الملك برؤياه سرورا عظيما ، وذلك ان هيو كان قد جلب
معه ثمانين من الفرسان كان الملك في امس الحاجة اليهم ،
واستجابة لرسالة استغاثة وصلته من القدس اندفع الملك نحو يافا
للتفريغ عن اهلها .

ولم يقدم الملك على نقل رجاله برا خوفا من كمائن العدو
وتمويهاته ، ولهذا ركب مركبا سريعا وابحر الى يافا ، ولدى وصوله
الى المرسى تلقى بترحاب بالغ ، لانه كما ورد في الانجيل : « لان ابني
هذا كان ميثا فعاش وكان ضالا فوجد » (لوقا : ١٥ / ٢٤) فقد
راى اهل يافا من انتحبوا لموته من قبل الان سالما وهو قيد الحياة .

وسارع هيو - وقد تملكه الخوف - في اليوم التالي الى التوجه

الى يافا ، فغادر ارسوف ، وقد تلقاه الملك على الطريق لانه خشي من تعرضه الى هجوم من قبل الاعداء ، وبعدما وصل الملك الى يافا لم يطل المشاورات والمداومات فقد قضت الضرورات باستدعاء الذين في القدس والخليل للحضور الى يافا ، لانه عزم على محاربة العرب الذين عسكروا على مقربة منها وفي خطتهم الاستيلاء عليها .

وفيما هو يبحث عن رسول يبعثه بهذه المهمة ، رأى رجلا سريانيا بسيطا رث الثياب ، فحرضه وشجعه على القيام بهذه المهمة ، ذلك انه لم يجد من هو قادر على القيام بهذه المهمة او يتجرأ على الاقدام والسفر في تلك الطرق بسبب الكمانن التي نصبها الاعداء ، ولم يتردد ذلك الرجل ، وقبل بأداء المهمة والقيام بالرحلة بعدما استمد الشجاعة من الرب ، وقد سلك مسالك غير مألوفة وشاقة وسار في جوف الليل حتى لا يكشف العدو امره حتى وصل الى القدس في اليوم الثالث ، وقد هده التعب وانهكت قواه ، وعندما اعلم هذا الرسول الناس هناك بالانباء السارة حول سلامة الملك وانه مازال على قيد الحياة ، قدم الجميع الشكر للرب ، وشرعوا بالاستعداد ، وبعدما اطلعوا على محتويات الرسالة التي حملها السرياني بادروا على الفور الى تجهيز العدو الاكبر من الفرسان ممن وجد بالقدس ، وانكر انه توفر وقتها في القدس تسعون ممن الفرسان الذين استطاعوا الحصول على الخيول ، ثم ساروا على الفور ، وتجنبوا اثناء زحفهم كمانن العدو ، وركبوا الطرق الفرعية حتى اشرفوا على ارسوف من طريق جانبيه .

وفيما هم يسيرون على عجل على محاذاة الشاطئ انقض عليهم الاعداء على أمل عزلهم وتطويقهم والقضاء عليهم ، وهناك اثر بعض الفرسان الفوص بين الامواج والسباحة والتخلي عن خيولهم حيث لم يكن امامهم خيار آخر ، ودافع فريق من الفرسان ممن ملك خيولا سريعة عن انفسهم حتى وصلوا الى يافا ولم ينج الجميع الا بعد مشاق شديدة وابتهج الملك كثيرا لحضورهم واسترد شجاعته ولم

يرغب في التأخر اكثر ، فنظم في اليوم التالي فرسانه ورجالته وانطلق الى حرب الاعداء ، ولم يكن موقع هؤلاء الاعداء في الحقيقة بعيدا عن يافا سوى ثلاثة اميال ، وكانوا قد شرعوا في اعداد الآلات لضرب الحصار على يافا والاستيلاء عليها بدون تقاعس ، وعندما راوا رجالنا يتقدمون نحوهم للقتال تناولوا اسلحتهم على الفور ، وتصدوا لنا بكل شجاعة وطوقونا من جميع الجهات لكثرة اعدادهم بشكل واضح .

وعندما احكم الطوق على رجالنا بهذه الصورة لم يبق لهم سوى العناية الربانية ولهذا لم يترددوا ووضعوا ثقتهم بمقدرة الرب العلية ، وتقدموا يضربون الاعداء بشدة مذهلة ، حيثما شاهدوا تكتلاته مهما كانت كثيفة او شديدة ، وكان رجالنا كلما اخترقوا بالقتال العنيف صفوف الاعداء اضطروا الى الرجوع والتحول الى موقع اخر ، ذلك ان الاعداء كانوا كلما راوا رجالتنا بدون حماية الفرسان ، كانوا يقتحمون ذلك الموقع ويقتلون الذين كانوا في الساقة ولم يكن رجالتنا جبناء ، فقد اطلقوا وابلا من الحراب على مهاجميهم حتى كنت ترى كثيرا من الحراب وقد التصقت بوجوه الاعداء اودروعهم ، وهكذا حدث بعون الرب ، بعدما صدت العدو حراب رجالتنا ، واصابته بجراح رماح فرساننا وبعد ماخسر المسلمون خيامهم انعطفوا على اعقابهم ولوا الادبار فرارا ، ولكن لم يلاحقهم احد منا لفترة طويلة ذلك ان عدد الملاحقين كان صغيرا .

لقد تخلص الاعداء عن خيامهم في السهل وعن جميع امتعتهم للفرنجية ، واخذوا معهم معظم خيولهم باستثناء ماقرمنها ومساهلك عطشا ونفق اثناء الفرار وحصلنا على عدد وافر من الجمال والحمير ونفقت اعداد كبيرة من الدواب اثناء الفرار اما من لعقرها او لشدة العطش .

لاريب انه كان من العدل والصواب خروج الذين حمتهم خشبة

صليب الرب منتصرين على اعداء ذلك الصليب ، وفي الحقيقة لو كان الملك قد حمل الصليب المقدس معه في المعركة السالفة الذكر من غير الممكن الشك وقتها ان الرب كان قد عطف على قومه غير ان هناك بعض الناس الذين يثقون بافراط بقوتهم اكثر من اعتمادهم على الرب ، ويعتمدون اكثر من اللازم على ما يرونه صوابا بعقولهم ولا ينصتون الى مشورة العقلاء ، ولهذا يخيل اليهم ان بإمكانهم اداء مهامهم على عجل وبدون روية ، وبناء عليه ان ضررا لا يمكن رتقه قد يحصل لا يصيبهم وحدهم بل يعم كثيرا بين الذين يشاركون في المهمة ذاتها ولذلك اعتاد مثل هؤلاء القوم القاء الملامة على الرب بدلا من ان يتبينوا حماقة انفسهم .

ان الذي يشرع في امر ما بحماقة لا يفكر بالعواقب «الفرس معد ليوم الحرب اما النصر فمن عند الرب» (امثال : ٢١ / ٣١) واذا لم يصغ الرب دوما الى صلاة الصالحين ، اليس الاخرى الا يستمع لصلاة الاشرار ، بل كيف يمكن للمرء توجيه اللوم الى الرب اذا لم تتحقق امنيته على الفور ، ولم ينبغي الاصغاء لمن لا قيمة له ، اولا يعلم الرب ما ينبغي عمله في جميع الحالات ؟ ويقول بوتيوس بهذا الصدد : «مع انك ترى امالك تقصر عن الانجازات غير ان هناك نظاما عادلا للامور ، والنظام الفاسد هو نتيجة تشوش في عقلك ، والرجل الاحمق يتوقع تحولا بالحظ بدلا ان يتوقع ما يستحقه » ، وغالبا ما يرى المرء شرا في امر قد يعود عليه بالنفع فيما بعد ، ومن جانب اخر ان ما يبدو انه سيسبب نجاحا للمرء قد يعود فيما بعد ويسبب له احباطا كبيرا . وعندما انتهى القتال ، وانتصر الملك كما سلف بنا الذكر ، حمل خيامه وعاد الى يافا ، واثّر ذلك ساد السلام في الارض طوال الخريف والشتاء التاليين .

الملك يحاصر مدينة عكا :

بعدها احتفلنا بعيد الفصح في القدس حسب العادة في ربيع ١١٠٣ ، زحف الملك على رأس جيشه الصغير وحاصر مدينة عكا التي تعرف ايضا باسم بطلومياس ، غير انه لم يتمكن من الاستيلاء عليها في تلك المناسبة لمناعة اسوارها وحصانة مواقعها المتقدمة لاسيما وان المسلمين في داخلها قد دافعوا عن انفسهم بشجاعة فائقة فانسحب الملك عائدا بعدما دمر حصانهم وبساتينهم وحدائقهم ، وقد رجع الى يافا .

اطلاق سراح الامير بوهيموند من الاسر :

راجت في تلك الاونة اقاويل رحب بها ، تحدثت عن اطلاق الاتراك لسراح الامير بوهيموند من الاسر ، وذلك ببركة الرب ، وقد بعث الينا برسول نقل عنه كيف فك رهنه من الاسر وكيف استقبل سكان انطاكية اميرهم السالف بكل غبطة ، فقد عاد الان واستلم سلطة تلك البلاد ، وبعد هذا تسلم مدينة اللانقية التي كان تانكرد قد احتلها وانتزعها من رجال امبراطور القسطنطينية ، وعوض تانكرد عن ذلك بتعويض موائم وطيب خاطرة بلباقة .

الجراح التي كادت ان تودي بحياة الملك :

وفي تلك الاونة ، بينما كان الملك بلدوين يقاتل ضد المسلمين حسبما جرت عادته ، صدف ان شن في احد الايام هجوما على جماعة منهم ، وفيما هو مبتهج ومتوقع لدمار المسلمين المؤكد ، اذا بسوداني يتسلل ويتربص خلف صخرة يريد قتله ، وقد دفع بشدة نحوه بحرية اصابتة بجراح بالغة في الظهر قرب قلبه ، غير ان الملك

تمائل للشفاء فيما بعد من جرحه المميت لانه وفر لنفسه العناية
والعلاج .

الاستيلاء على مدينة عكا :

بعد انقضاء موسم الشتاء وحلول فصل الربيع احتفلنا بعيد الفصح
في القدس عام ١١٠٤ ، واثر هذا حشد الملك رجاله ، وانطلق يريد
عكا لمعاودة حصارها ، ووصل انذاك اهل جنوى الى هناك في سبعين
سفينة متقاربة (شواني) وبعد مضي عشرين يوما على حصار
المسيحيين لهذه المدينة بالاتهم وبعد قيامهم بعدة هجمات عليها دب
الرعب في قلوب المسلمين وسلموها الى الملك لكن على مضض ، وكنا
بامس الحاجة الى هذه المدينة لان فيها مرسى واسع جدا يمكن ان
ترسو بين ابراجه الامنة اعداد كبيرة من السفن .

طلعت الشمس تسع مرات في برج الجوزاء
عندما سقطت عكا التي تدعى بطومياس
في سنة الف ومائة واربع
وهذه ليست مدينة اكرون التي يدعوها بعضهم عكا

وعندما استولى الفرنجة على هذه الكينة على هذه الصورة ، قتلوا
كثيرا من المسلمين لكنهم ابقوا على حياة بعضهم بعدما انتزعوا
منهم جميع مايملكون .

بوهيموند يعبر البحر الى ابوليا :

بعد انقضاء فصل الصيف عبر بوهيموند البحر مع عدة سفن الى ابوليا ، وذلك بعدما كثرت متاعبه واشتد به الضيق ، ورافقه في الرحلة ديمبرت بطيريك القدس السالف الذكر وكان رجلا حكيما سيدد الرأي ، وقد رحل بوهيموند بهدف العودة فيما بعد على رأس قوة من الرجال من بلاد ماوراء البحار ، اما ديمبرت فقد سافر بغية اطلاع البابا في روما على شكواه وعلى ما نزل به من مظالم ولحقه من اذى من قبل الملك ، لقد ذهب وحصل على ما ارداه واخذ طريق العودة ، غير انه لم يصل لانه لاقى حتفه وهو على الطريق مسافرا .

اسر رجال أنطاكية ومصرع بعضهم في الحرب ضد الفرشيين

تشجع في تلك الاونة جيراننا من الفرشيين والميديين والكلدانيين وجميع اهالي بلاد الرافدين على مهاجمتنا نحن المسيحيين والحاق الاذى بنا بكل وسيلة ، وعندما عرفنا بهذه الاخبار اعد قادتنا جميعا العدة للتصدي للاعداء في ساحات الوغى .

اعد العدة كل من الامير بوهيموند وتانكرد ، وبلدوين كونت الرها وجوسلين ، وكذلك فعل ديمبرت بطيريك القدس ، واسقف الرها المدعو بندكت ، وسرعان ما باتوا جاهزين على رأس جيش من الفرسان والعامه ، وزحفوا الى ماوراء نهر الفرات ، الى مدينة تدعى حران قرب نهر الخابور ، والتقوا بسرايا اعدائهم هناك ، واشتبكوا بالقتال قرب الرقة بدون تأخر ، لكن بسبب عكث اثمنا ، مزقت صفوف المسيحيين وبددت قواهم ، وكانت هذه المعركة كارثة

هي اشد مما اصابنا في جميع المعارك السالفة ، فهذا مادلت عليه النتائج .

وقع اللورد بلدوين ، كونت الرها ، والذي سيغدو فيما بعد ثاني ملوك القدس ، هناك بالاسر ، واسر معه جوسلين قريبه ، كما اسر معهما الاسقف السالف الذكر ، وغرق عدد كبير من الرجال وفقدوا في النهر المذكور ، وضاعت هناك ثروات كثيرة وخيول وبغال .

وتمكن اللورد تانكرد والامير بوهيموند من الفرار ، فقد عبرا طرقا ومسالك غير مألوقة ، وتجذبا حتى بخيار افضل الطرق والممرات ، وفاقا اخيرا بالسلامة وهما تتملكهما الدهشة والحيرة .

ومات كثير من الرجال بفعل رشقات الذشاب وطعنات الخناجر ، وهكذا نجد ان اللذين كان بمستطاعهم الاستيلاء على حران دون صعوبة لو حاصروها في البدء ، لم يتمذوا بعد ذلك من الاستيلاء عليها سواء لدى توجههم اليها او اثناء عودتهم ، وكما ينجم الضرر عن استعمال الخديعة تحت ذريعة الامن في بعض الاحيان كذلك يعود الخوف مع الحيطة بالذفع على الخدر والجبان ، فقد قيل قديما التقاعس خطر على من استعد للعمل .

يقينا ان عدوين هما الحسد والخصام ، قد سببا الحاق المضار بشعبنا اثناء هذه المهمة ، بل الكارثة ، فقد اعتاد هذان العدوان على انزال الرجال من على ظهر الثروات التي جمعوها الى حضيض الاملاق ، ولقد شهدنا ذلك مرارا ، وخبيرناه بالتجربة ، ولن انخدع او يضللني معسول الكلام ، حتى استغرق بالتفكير في سفاسف الامور .

لقد عادى الفرنجة في هذه الحملة الخطيرة بعضهم بعضا الى حد انهم تمنوا قبل ان تنزل بهم النازلة ان يأخذ كل طريقة ويحلوا

الاحلاف التي عقدها ، وحقا ان من يقتترف الشر ويتوقع الخير لجاهل ، ذلك ان الرب لا يتقبل شيئا قام على الخصام وبلامحبة ، وبناء عليه ان من العار والجبن ان اهجر صحبة من توجبت علي صحبته (الرب) وعبانته حتى اقضي اجلي .

وما لبث الرب ان مد يد العون الى اسقف الرها ، الذي كان مكبلا بالاغلال آنذاك فقد حملة الاتراك كثيرا من الاثقال من ادوات واوعية كما لو كان دابة من دواب حمل المتاع ، وتم اختطافه من بين ايدي الاتراك بعون الرب ومشيبته بعملية اتسمت بالحسارة البالغة وذلك بمساعدة فارس شجاع خاطر بحياته بكل اخلاص حيث لم يعد ذلك الفارس حياته اثنى من الاسقف .

لقد اضطرت اثناء حملة الحج الحماسة في قلوب عدد كبير من الرجال ، وكانت حماستهم للرب ، فقد رغبوا بالتضحية بهذه الحياة ، وسعوا لان يموتوا ميتة الكرام حتى ينعموا بالسكينة مع المسيح ، واذكر على سبيل المثال قصة رجل راه قومننا وسمعوه عندما كنا حول انطاكية ، وقد سمع واحدا من الكفار بجندف على اسم الرب بازدياء شديد ، فهاجت في نفسه الغيرة واشتعلت حماسته ليتصدى له بالقول والعمل فحرك فرسه على الفور ، وسأل الواقفين من حوله بتلهف : من اراد منكم ان يتناول عشاءه في الجنة فليأت الآن ويأكل معي ، فانا على وشك الذهاب الى هناك ، ثم لوح برمحه بكل قوة وعزم ، واندفع وسط لجة من آلاف الاعداء يقتل ويهزم كل من واجهه ، حتى هلك بالحال وقتل وهو يقتل غيره ، وواجه منيته بكل سرور يحدوه الايمان والامل وتدعمه المحبة ، فمن الذي سمع بمثل هذا ؟ لقد مجده عليين وهو ما يزال ممددا على الارض .

انه من اجل مثل هذا تغتبط السموات ومن فيها ولقد كان ذلك بالفعل مصدر سرور وحمد بالنسبة لنا ، لان الملائكة قد ابتهجت باضافة

مثل هذا الرفيق اليها ، فقد كان الرب قريبا ، وسمع منه واجزل له
الجزاء بالعطية التي اعد لها ، منزلا ابديا (يوحنا : ١٤ / ٢) .
» في بيت ابي منازل كثيرة ، وانني كنت قد قلت لكم : انا امضي لاعد
لكم مكانا ، .

اطلاق سراح الكونت بلدوين والقتال بينه وبين تانكرد :

بعدما مكث اللورد بلدوين مكبلا بالسلاسل لمدة خمس سنوات ، وبعد
تبادل الرهائن المنتقاة تعهد بلدوين باقسام الايمان المشددة ان
يستردهم ، . وقد قتل الرهائن بالخدعة حراسهم فيما بعد ، وتخلص
بلدوين من سجنه ، وقد ساعده على ذلك جوسلين بكل اخلاص ، ولما
عاد بلدوين بعد هذا الى مدينة الرها ، لم يتمكن من دخولها ، لان
تانكرد واعوانه منعه من الدخول .

وبعد طول انتظار ، وتماشيا مع مصلحة كل من بلدوين
وجوسلين ، واستنادا الى الاتفاقية التي كان بوهيموند قد عقدها في
الماضي وتعهد بها بان تعاد بلاد بلدوين له من دون جدال فور اطلاق
سراحه من الاسر ، وكيفما كان الحال ، لقد تحالف بلدوين
وجوسلين وخاضا الحرب ضد شريكهما الثالث تانكرد .

ولم تفلح جهود تانكرد في تطبيب خاوطرهما ومناشدته السلام
وحشد جوسلين سبعة آلاف تركي وتحدى تانكرد الذي لم يكن
مستعدا للحرب ، وقتل الاتراك خمسمائة من اتباع تانكرد ، ومع ان
تانكرد اوشك في البداية على الهزيمة ، لكن الرب الذي يطل بوجهه
على العدالة يوما قضى ان يبقى على ارض المعركة منتصرا بشرف ،
ولما رأى رؤساء البلاد مدى الاضرار التي لحقتهم عقدوا المداورات
فيما بينهم ، ثم توصلوا الى عقد اتفاقية بين الاطراف المتنازعة .

بوهيموند يذهب الى غاليا

كنا قد ذكرنا من قبل ان بوهيموند قد وهنت عزائمه لعدة اسباب ،
ولذلك توجه الى بلاد غاليا ، وكان من جملة ما فعله هناك انه تزوج
من ابنة الملك فيليب الذي تعرف باسم كونستانس واخذها الى
ابوليا ، وقد انجبت له صبيين ، مات اولهما ، وعاش الثاني التي
حمل اسما مثل اسم ابيه وصار وريثه .

انتصار تانكرد في حربه ضد الاتراك :

في اليوم الثاني من شهر آذار لعام ١١٠٥ م توفي الفارس المبرز
الكونت ريموند في موقعه المنيع امام مدينة طرابلس ، وقد خلفه ابن
اخيه وليم جوردان .

ولم يتخل المسلمون والاتراك في تلك الآونة عن عنتهم المعهود ،
فقد حشد رضوان ملك حلب في شهر نيسان جيشا لا يستهان
بتعداده ، جمعه مما حوله من البلاد وشمخ برأسه بإسراف في
العنجهية ليخوض الحرب ضد تانكرد امير انطاكية .

والقى تانكرد ثقل أماله في الرب وليس في حشود الرجال ، وهياً
صفوفه ونظمها بشكل جيد للقتال ، وامتطى جواده وتقدم نحو العدو
بلا تردد ، ومختصر القول : اندفع تانكرد نحو الاعداء امام ارتحاح
بكل بسالة ، فذب الرعب في قلوب الاتراك ، وكان ذلك بعون من
الرب ، ولا نوا بالفرار ، لقد هربوا وطاردهم فمات منهم كل من لم
يقدر على الفرار ؛ لقد مات منهم ما لا يمكن عده واستولى تانكرد
على كثير من خيولهم كما واستولى على راية الملك ، بعد ما فر
مهزوما وقد فقد عزته وكرامته ، وبذلك تمجد الرب ، الذي يهب الى
عون المؤمنين يوما .

وبعد ما فرغنا من ذكر هذه الامور عن اهل انطاكية نعود الآن
لنتفحص احوال اهل القدس .

ملك مصر يبعث بجيوشه ضد الملك بلديون الذي اعد نفسه
ضده :

علي ان اذكر انه في ذلك العام بالذات حشد ملك مصر كثيرا من
الرجال وبعث بهم تحت امرة صاحب عسقلان ليشن الحرب على
المسيحيين ، لقد نوى ان يطردنا من الارض المقدسة جميعا ، وخيل
اليه انه يستطيع ذلك ، ذلك انه عرف اننا كنا قلة في العدد بدون
مساعدة الحجاج المعهودة ، ولهذا الغرض احتشد في عسقلان
فرسان العرب ورجالة السودان ، وكان معهم اكثر من الف تركي
قدموا من دمشق ، وكانوا من رماة النشاب من الطراز الاول .

وبعد ما عرف الملك بهذه الاخبار حشد رجاله جميعا ، ووقف
يتربص العدو قرب يافا ، ويحكم الضرورة توجه الى القتال كل الذين
عاشوا بالمدن وكانوا قادرين على حمل السلاح ، باستثناء الذين
حرسوا الاسوار في الليل ، ثم دب في قلوبنا الخوف ، وتملكننا
الرعب ، خشية ان يستولي الاعداء على احدى مدننا الخالية من
الرجال ، او ان يقتلوا الملك واصحابه في المعركة ، ووقع هذا في شهر
آب ، وبمهارة ودهاء تجنب الجانبان القتال ، فلم يهاجمونا ولم
نهاجمهم .

وبعد طول انتظار ، حدث كما ارى بتقدير رباني ، ان تقدم ذلك
الجنس الشرير من عسقلان ، وشرع بالاقتراب منا ، ولما اتضح
ذلك للملك ترك يافا ، واخذ الطريق الى الرملة ، وبما ان « التقرب
من الرب خير لنا ، فقد جعلنا مولانا الرب ملجأ لنا » (المزامير :
٧٣ / ٢٨) فقد بعث الملك ، بالهام رباني ، مبعوثا في البحر الى

البطريرك ورجال الاكليروس وعامة الناس في القدس ، يرجوهم ان يقيموا الصلوات حسب طاقتهم ، وان يسألوا الرب القدير عله يتمنن فيقدم العون من عليائه للمسيحيين في شدتهم وعسرتهم .

وعلى الرغم من الالاح الشديد ، رفض هذا الرسول قبول اي اجرة ، فقد خشي ان يخفق في اداء هذه المهمة او ان لايبقى على قيد الحياة حتى يقبض المكافأة ، لقد وضع ثقته في الرب الذي سيكافئته بشكل ما على عمله الصالح ، وهكذا باذر مسرعا بالسفر الى القدس ، ووضع روحه وجسده بين يدي خالقه ، وبهداية من الرب وصل الى هناك وحال دخوله الى المدينة اعلن عن فحوى مهمته .

وما ان اعلنت هذه الاخبار حتى امر البطريرك بقرع الناقوس الكبير ، وان يجتمع الناس جميعا امامه حيث خاطبهم بقوله : « أيها الاخوان أيها الاصدقاء ، يا عبيد الرب ، ان المعركة التي سمعتم عنها لا بد بحق واقعة ، وكما اعلن المبعوث انها محيقة بنا بكل تأكيد ، وبما اننا لانستطيع مقاومة هذه الحشود الهائلة بدون العناية الربانية ، عليكم ان تطلبوا الغفران من الرب ، وتتوسلوا اليه كي يتمنن برحمته فيعين بلديون ملكنا وجميع رجاله في قتالهم المرتقب ، ولقد اخبرنا المبعوث ان الملك قد اخر القتال الى الغد ، الذي سيصادف يوم الرب ، اليوم الذي قام فيه المسيح من الموت ، عله - اي الملك - يقاتل مؤملا اكثر بالتوفيق ، وهو يتوسل اليكم ان ترفعوا صلواتكم الى الرب وتقدموا صدقاتكم على امل ان يستمد القوة ليحارب بعزيمة اكبر ، وبناء عليه امضوا امسية العيد هذه وفقا لتعاليم الرسل ، كونوا راسخين متمسكين بايمانكم ، واجعلوا كل اعمالكم في سبيل البر والاحسان وفي الغد سيروا حفاة في الاماكن المقدسة . من هذه المدينة مثلين نفوسكم وكابحين لاهوائكم ، واطلبوا من الرب بكل خشوع ان ينجينا من برائث اعدائه .

اما انا فسوف اتوجه الآن نحو الملك ، انني سوف اتحرك نحوه

في الحال ، واتمنى على كل من بقي منكم هنا وهو قابر على حمل السلاح ان يتحرك معي على الفور ، فالملك بحاجة الى الرجال ودون ان اطيح عليكم الكلام اقول : لقد امتطوا جيادهم ، وكان قد بلغ تعدادهم مائة وخمسين رجلا من بين فارس وراجل ، ومع حلول الظلام شرعوا في مسيرهم فكان ان وصلوا الى الرملة عند بزوغ الفجر .

وانقطع الذين بقوا في القدس الى الصلوات بكل حماسة وبكوا وتصدقوا وداوموا على زيارة الكنائس حتى الظهيرة ، وكانوا يرتلون ويبيكون ، ويبيكون ويرتلون مثلما فعل الرهبان في الموكب ، فلقد صليت أنا شخصيا حافي القدمين مع البقية ، وصام الرجال المتقدمون بالسن حتى الساعة التاسعة من النهار ، ولم يرضع الأطفال من اثناء أمهاتهم حتى ارتفع عويلهم من شدة الجوع ، وقدمت بالفعل صدقات جزيلة الى الفقراء ، فمثل هذه الاعمال تفرح الرب وترغبه في أن ينقذنا « لعله يرجع ويندم فيبقى وراه بركة تقدمه » (يوثيل : ١٤/٢) .

القتال بين الأتراك وأهل القدس – النصر نحززه بفضل صليب الصليبوت :

ما أن وصل البطريرك الى الرملة ، وبزغ نور الفجر ليزيل بريق النجوم ، ابتهج الجميع لوصوله وحرصهم ذلك على الاسراع نحو قساوستهم للاعتراف بخطاياهم تجاه الرب والناس ، كذلك باسء الرؤساء بالتوجه نحو البطريرك لسماع كلمات نافعة منه وليتحلوا من خطاياهم .

وبعد ما تم هذا كله ارتدى البطريرك الثوب الاكليروسي الفخم ، وحمل بين يديه صليب الصليبوت المجيد الذي يحمل عادة في

مثل هذه المناسبات ، ولدى الفراغ من تنظيم صفوف كتائب الفرسان والرجالة تقدم الجميع نحو الجيش المعادي .

وكان تعداد فرساننا خمسمائة باستثناء الذين لا يعدون فرسانا وأن امتطوا الخيول ، ولم يتعد عدد رجالتنا الألفين ، وفضلا عن هذا قدر عدد الكفار بخمسة عشر ألفا من بين فارس وراجل ، وقد عسكروا تلك الليلة في مكان لا يبعد أكثر من أربعة أميال عن الرملة .

وفي الصباح عندما رأوا الملك متقدما نحوهم استعدوا للقتال على عجل ، وبذلك أحبطت خططهم ، فقد كانوا قد خططوا لارسال جزء صغير من جيشهم ضد الرملة لخداع جيشنا ، لأنهم قرروا ارسال الجزء الأكبر ضد يافا لمهاجمتها واحتلالها دون علم منا ، غير أنهم عندما رأوا الملك راكبا نحوهم بهذه الطريقة جمعوا قواهم على الفور انما بعدما أحبطت خططهم .

وبدون تقاعس أو تردد انقض كل فريق على الآخر ، ثم ارتفع نوي القتال وصليل السيوف ، وفي أثناء القتال صرخ كل واحد من رجالنا في وجه الأعداء « المسيح يقهر ، المسيح يملك ، المسيح يحكم » ، وذلك تنفيذًا للأوامر التي صدرت اليهم ، وأحاط بنا الأعداء على أمل أن يشيعوا الفوضى بين صفوفنا ويحطموننا كلية ، وأطلق رماة السهام من الأتراك وابلا من السهام علينا ، وفعلوا ذلك وهم كعادتهم يدورون حولنا ، وبعد أن أتموا مهمتهم كرماة سهام ، امتشقوا سيوفهم من أغمادها وانقضوا علينا واشتبكوا معنا في قتال التحامي قريب ، وعندما رأى الملك ذلك ، ازدادت شجاعته فاختطف رايته البيضاء من يد أحد فرسانه واندفع هناك على رأس قلة من رجاله وأسعف الذين تعرضوا للهجوم ، فشنت بعون الرب بهجومه وقتاله الأتراك على الفور ، ثم عاد ليهاجم الحشد الأعظم من المسلمين والعرب والسودان .

وليس بسودي اطالة الكلام عن هجوم الطرفين وانقضاضاتهم ، فأننا أرغب في اختصار الرواية الى الحد الكافي ، ذلك أن الرب الكلي القدرة ، الذي لا ينسى أبدا عبيده ، لم يشأ أن يدمر هؤلاء الكفار مسيحييه ، الذين قدموا الى القدس من البلاد النائية محبة به ، وتمجيدا لاسمه ، فقد أزمع هؤلاء الكفار بشكل مفاجيء على الفرار عائدين الى عسقلان ، أه لو وقع أميرهم وقائد جيشهم سناء الملك بالأسر ، كم من الاموال كانت دفعت للملك بلديون لفكاكة ؟! غير أن جمال الملك ، صاحب عسقلان ، والوافر الثروة ، لم ينج ، فقد قتل وأحدث موته كثيرا من الحزن بين صفوف أولئك القوم ، وقد أسر أمير آخر ، أصله من عكا ، أسر وهو على قيد الحياة ، وقد أطلق الملك سراحه بعدما دفع فدية مقدارها عشرين ألف قطعة نقدا فضلا عن الخيول وأشياء أخرى .

ثم أبيد السودان في ساحة الوغى ذلك أنهم لم يتمكنوا من الفرار ، وقيل أن أربعة آلاف من فرسان العدو ومشاته قد قتلوا مقابل ستين من رجالنا وخلف الأعداء لنا وراءهم خيامهم مع كثير من الدواب والجمال والحمير .

ثم حمدنا الرب ومجدناه ، لأنه أمدنا بالقوة وجلب لأعدائنا الدمار ، أه ما أروع هذا المقضي بالحكم الرباني ، فقد نظر الرب في أمر الذين قالوا : « سوف نجىء ونقتل كل هؤلاء المسيحين ونمتلك لأنفسنا مساكن الرب » (مزامير : ١٢/٨) لكن الأمور أيها الكفار لم تحصل هكذا (مزامير : ٤/١) « لأن الرب جعلكم مثل الجل ، مثل القش أمام الريح » (مزامير : ١٣/٨) « لكي يرجفهم بغيظه » (مزامير : ٥/٢) فقد حلفوا حسب ناموسهم أن لا يفرروا مطلقا أمام الفرنجة ، غير أنهم وجدوا أخيرا السلامة في الفرار ، لذلك أثروا أن يحثوا بأيمانهم على أن يموتوا ميتة غير مجدية .

وفي الختام عاد الملك مبتهاجا الى يافا ، حيث وزع على فرسانه

ورجالته الغنائم التي كسبوها ، وفعل ذلك بموجب حسابات دقيقة .

اسطول أهل مصر :

كان للمصريين أسطول أمام يافا واقفا حتى ذلك الوقت ، فقد كان المصريون ينتظرون هناك منذ أمد على أمل أن يجدوا الفرصة والوسيلة لابتدئنا كليا بالبر وفي البحر ، وليدمروا معنا مدننا البحرية ، غير أنه بعدما أمر الملك بلدوين بحارته بالقاء رأس الأمير جمال الملك ، التي قطعت في المعركة ، على سطح إحدى سفن العدو ، أصاب هذا العدو هلع شديد وارتجف لدى اكتشافه ، لهذا لم يشأ إطالة البقاء هناك ، وهكذا تراجع الأعداء بعدما علموا بالمصيبة التي حلت بقومهم ، وتم التراجع الى مينائي صيدا وصور ، حيث حملت سفنهم الى هناك ربح جنوبية طيبة .

ولدى عودة هذا الأسطول الى مصر فيما - بعد - حلت علينا بركات الرب ، اذ ان العواصف شتتت سفن الأعداء ، ورمت بها مقلوبة الى مراسينا ، وقد استولينا على خمس وعشرين سفينة مشحونة بالمسلمين ، وأبحرت السفن الأخرى ، لكنها لم تنج الا بشق الأنفس ، ولقد كان الرب معيننا لنا ورؤوفنا بنا في محنتنا ، وكشف لنا عن قدراته الكلية .

شعر :

وبناء عليه بودي أن أعلن عن تاريخ المعركة .
فقد أشرقت الشمس مرات عشر في برج العذراء

وعندما أطل القمر على الأرض
في سادس يوم من مطلع ايلول

منح الكلي القدرة النصر للفرنجة ، ليبتهجوا
عندما ركن العرب ثم الأتراك والسودان الى الفرار .
فر بعضهم الى الجبال ، بينما سقط الباقون صرعى في ساحة
المعمعة .

الزلال :

قد يطوي النسيان هذه الأعمال ان لم تسجل وتدون ، وذلك أما
بسبب الإهمال أو لنقص في مهارة المصنفين ، أو ربما لقلّة عدد
المصنفين وانشغالهم بمشاكلهم الأخرى ، ولهذا أثرت أنا
فولتشر - مع افتقاري الى المهارة وعجزى وعدم مقدرتي - أن
أشتهر بالحماقة والطيش على أن أسمح في أن لاتعرف هذه
الانجازات ، فكان أن دونتها كما شهدت بنفسى ، أو
علمتها - بعد التقصي الشديد - من المصادر المعتمدة .

وفضلاً عن هذا ، إننى استميت عنرا من قارئ هذه السطور في
أن يغضى بلطف عن نقصي في المهارة ويصحح إن شاء اسلوبى ، اذا
لم يرق بهذا التصحيح كاتب بليغ ، لكن عليه الا يعبث في ترتيب
تاريخى هذا ، من أجل اسلوب طنان مزركش ، وأن لايموه بالخداع
حقيقة الأحداث .

وشعر بعد هذه الوقائع التي تقدم ذكرها ، كل من كان منا
بالقدس في أواخر العام بزلزال هائل أصابنا برعب شديد ، وكان
ذلك ليلة عيد ميلاد الرب .

العلامات التي ظهرت في السماء :

في عام ١١٠٦ ، ظهرت في السماء مذنب ، فأصابنا

الخوف لأننا ارتبنا في شأنه ، وقد سار باتجاه غروب الشمس في فصل الشتاء ، واطلق شعاعا ابيض براقا ، وكأنه مد من خيط من كتان مذهب في الطول ، وبدأت هذه العلامة المثقلة بالاحتمالات بالاحمرار في شهر شباط يوم اخلال القمر ، ولقد سلمنا للرب ماتنطوي عليه من اسرار ، حيث لاندعي القدرة على التنبؤ ، ولمدة خمسين يوما او اكثر ظهر ذلك المنذب كل مساء في جميع ارجاء الدنيا ، ومن المثير للعجب ان هذا المنذب نفسه بدأ مع ضوئه الأبيض يخبوان منذ يوم ظهوره وذلك كل يوم شيئا فشيئا الى ان انعدم نوره في ايامه الأخيرة واختفى بالكلية هو ذاته.

وفي العشرين من الشهر نفسه سرعان ماشهدنا بعد ظهور القمر من الساعة الثالثة وحتى الظهيرة شمسين في السماء واحدة الى يمين الشمس الحقيقية والأخرى الى يسارها ، بيد أنهما لم تشعا بذور مثل نور الشمس الحقيقية ، بل توهجتا بذور خافت وبشكل باهت ، وزد على هذا تجلت حول هاتين الشمسين هالة بيضاء امتدت مثل المدينة (القدس السماوية) وتألفت داخل هذه الهالة نصف دائرة شبيهة بقوس قزح ، وكان لها اربعة الوان مختلفة ، وقد عانقت الشمس من الطرف العلوي من منحائها الى حد انها لامست الشمسين الآخرين اللتين اتينا على ذكرهما من قبل ، ثم شوهد في الشهر التالي ، في منتصف الليل ، وبطل من الشهب من السماء.

هجوم المسيحيين على أهل دمشق :

شن هيو صاحب طبرية في الصيف التالي هجوما على جند دمشق ، وبعدها هزموه مرتين على أرض المعركة ، قدر له الرب أن ينتصر في الهجوم الثالث ، فقتل منهم مائتين واحتفظ بخيولهم ، وهرب بقية الأعداء ، وكم هو ممتع أن يحكي المرء هذه القصة ، فقد مزق مائة وعشرون رجلا منا صفوف أربعمائة منهم ، واثرت ذلك أصيب هيو بسهم أودى بحياته ، وكان في حملة مع الملك بلدوين في المنطقة ذاتها .

عبور البطريرك البحر الى روما والحرب ما بين رجال يافا ورجال عسقلان :

عبر في عام ١١٠٧ م البطريرك المدعو أبرمار البحر الى روما ليستفسر من الكرسي الرسولي عما اذا كان سيحتفظ بمركزه كبطريرك أم لا ، اذ أن ديمبرت كما سلف بنا الذكر ، كان قد استرد منصب البطريركية ، لكنه توفي وهو مسافر على طريق العودة .

وفي شهر تشرين الثاني من السنة ذاتها ثارت وحشية رجال عسقلان المعهودة ، فنصبوا الكمان على سفوح الجبال بين الرملة والقدس ، وكانوا يهدفون الى الانقضاض على مجموعة من قومنا وأسرهم بعدما علموا بأنهم على وشك التوجه من يافا الى القدس .

وعندما عرف رجال يافا بذلك ، امتطوا ظهور خيولهم بدون تأخير ، وانطلقوا الى مواقع الكمين ، حيث قادهم اليه الذي ابلاغهم الخبر ، وكان رجالنا يشكون في صدق الأخبار ، لكنهم عندما شاهدوا الحقيقة لم يصدقوه فقط ، بل دب في قلوبهم الرعب ، واشتد خوفهم لدى رؤيتهم للعدو ، فقد كان عدد رجال

عسقلان نحواً من خمسمائة فارس وألف راجل ، بينما لم يتجاوز عدد رجالنا الخمسة والستين .

ولم يتهيأ لهؤلاء الرجال الوقت الكافي لتدبير أمورهم ، ووجدوا أن لاجتاة لهم في الفرار ، والموت لا بد مدرّكهم أن هم حاربوا ، ومع هذا أثروا أن يموتوا بشرف إذا اقتضى الحال على أن يلحقهم عار الهزيمة فيما بعد ، وهكذا انقضوا بشكل مباغت على الأعداء ، واخترقوا صفوفهم بشكل مذهل ، وطرحوهم أرضاً وذبّحوهم ، ولما أدرك المسلمون فداحة الخسائر التي لحقت بهم ، تخلت عنهم شجاعتهم ، وتوقفوا - بمشيئة من الرب - عن القتال .

وعندما تبين لجنودنا هذا الحال ، شددوا ضغطهم على المسلمين ، فأرغموهم على الهرب ، بعدما كان قد خيل اليهم أنهم سيجبرون رجالنا على الفرار ، وقتل رجالنا عدداً كبيراً من المسلمين ، واستولوا على كثير من خيولهم ، ولم نخسر غير ثلاثة من رجالنا ، لكن حواشي معسكر العدو سرقوا بعض الدواب المحملة ، غير أن رجالنا انتزعوا ضريبة مضاعفة منهم .

بوهيموند يجمع جيشاً ويعيث في أراضي الامبراطور :

بعدما رجع بوهيموند في ذلك العام نفسه ، من بلاد الغال ، حشد أكبر عدد ممكن من الرجال ، وجّهز أسطولاً في ميناء برنديزي في أبوليا ، وقد اعتلى الرجال متن السفن بعد انتظارهم للريح المواتية للجواز ، وكان ذلك في اليوم السابع قبل منتصف شهر تشرين الأول ، وابتحروا إلى بلغاريا ، ونزلوا على اليابسة في ميناء أفلونا .

وإثر الاستيلاء على ميناء أفلونا بكل سرعة ، قصدوا مدينة

دورازو وحاصروها في اليوم الثالث قبل منتصف تشرين الأول نفسه
ولما كانت هذه المدينة مزودة جيدا بالمؤن ومشحونة
بالرجال ، فقد صمدت أمام المحاصرين مدة طويلة ، مع أنه كان
بصحبة الأمير بوهيموند خمسة آلاف فارس وستون ألف راجل
علما بأنه لم يسمح وقتها للنساء بالجواز معه حتى لايربكن
تحركات الجيش ويشكلن عبئا عليه .

وكان امبراطور القسطنطينية المدعو الكسوس ، قد بات في تلك
الآونة يعد عدوا لقومنا أعاق حجاجنا وأرعبهم بالخديعة حيناً
وبالعنف السافر أحيانا ، وذلك أثناء ركوبهم الطريق الى القدس برا
أو بحرا ، وكان هذا هو المحرض لبوهيموند لغزو بلاده ومحاولته
الاستيلاء على مدنه وقلاعه .

معاهدة سلام بين الامبراطور وبوهيموند - حلف
الأيمان لحفظها :

في سنة ١١٠٨ لتجسيد مولانا المسيح ، وبعد حصار استمر طيلة
عام كامل أخفق بوهيموند في انجاز أي شيء ملموس ، مع أنه
استخدم حيلة حربية كثيرة ضد الامبراطور ، مثلما عمل الامبراطور
ضده ، وتوسط الأصدقاء بينهما وأمكن أخيرا الوصول الى معاهدة
سلام عقدت بينهما ، وكان ذلك بعدما اقترب الامبراطور على رأس
جيشه من بوهيموند وبعدهما التقيا للحوار عدة مرات .

وتعهد الامبراطور - بعدما أقسم على الأثار المقدسة
الغالية - أن يؤمن منذ ذلك اليوم فصاعدا سلامة الحجاج ، الذين
تردد ذكرهم كثيرا أثناء المباحثات ، وأن يمنع عنهم الأذى في البر
والبحر في جميع البلدان التي وقعت تحت سلطانه ، وأن لا يحتجز أي
واحد منهم أو تساء معاملته وأقسم بوهيموند بدوره على أن حافظ

على السلام مع الامبراطور وأن يمنحه الولاء في جميع الأمور .
ثم رجع بوهيموند بعد هذا الى أبوليا ، وذلك عندما سنحت له
الفرصة بذلك وصحب معه عددا ضئيلا من جنده ، في حين سار
القسم الأعظم من الجيش الى القدس ، لكن عبر البحر وذلك تنفيذا
لما سلف وتعهدوا به .

وفي هذه السنة توفي فيليب ملك فرنسا .

حصار مدينة طرابلس :

بعد الاستيلاء على مدينة القدس بأحد عشر عاما أي في
العام ١١٠٩ قدم برترام بن الكونت ريموند الى طرابلس ، وكان قد
أحضر معه أهل جنوى واسطولهم المكون من حوالي السبعين سفينة
من نوات المناقير ، وهبطوا الى اليابسة هناك ، واستهدف برترام
حصار هذه المدينة و الاستيلاء عليها وتملكها بحق الوراثة عن
أبيه .

وقد نشب نزاع بين برترام ووليم جوردان فور القاء الحصار على
المدينة ، ذلك أن وليم كان يهاجم المدينة طيلة المدة التي انقضت منذ
وفاة ريموند ، الذي كان يسكن في قلعة قرب طرابلس عرفت باسم
تلة الحجاج ، وحاجج برترام بأن المدينة له بحق الوراثة الشرعي
عن والده الذي كان البادئ أصلا بمهاجمة طرابلس ، وقد شيد
القلعة الحصينة هذه المعروفة بتلة الحجاج لغرض حصار
المدينة ، وقال أوصى لي والدي أثناء حياته بمدينة طرابلس كي
اتملكها بعد وفاته .

ورد عليه جوردان قائلا : الحق أن تكون المدينة لي ، لأنني
قمعت سكان البلاد المعادين ، وتصديت لهم منذ وفاة الكونت ريموند

بقواتي الخاصة ، وبذلت جهودي وناضلت في سبيل ضم الأراضي المجاورة للمدينة .

ولما كانت العظمة تضمحل وقت النزاع ، وتنمو التفاهة أثناء انعدام الوثام ، فان وليم تخلى عن متابعة الحصار غضبا وكراهية ، وقام برترام مع رجاله بتشديد الحصار ، فهو لم يرغب في أن يصيب وليم النجاح ، وبالمقابل رغب وليم في أن لا يبقى برترام بين الأحياء .

لقد تصارعا من أجل مسائل مشكوك بها ، وارتابا في أمور لاشك فيها ، لقد ناضلا في سبيل متاع الدنيا لافي سبيل القيم الخالدة ، ومن يركض تسرعا قد لا يجني شيئا ، لذلك تظل المغانم مشكوك فيها فالأمر « ليس لمن يشأ ولا لمن يسعى بل للرب الذي يرحم » (رسالة بولص الى أهل رومية : ١٦/٩) فقد بدء بالتناهر على ما أملا بالاستيلاء عليه ، وتتصرف الأوقات بان من الرب « والرب يعترف أن أفكار الانسنان باطلة » (مزامير : ١١/٩)

احتلال مدينة طرابلس :

وبعد ذلك بأمد وجيز وصل الملك بلدوين أثناء الحصار ، وقد سأل أهل جنوى تقديم العون له في الاستيلاء على عسقلان وبيروت ، وكذلك على صيدا خلال ذلك العام .

وحدث أنه ما أن شرع بلدوين في اصلاح ذات البين بين الكونتين السالفي الذكر ، حتى جاء سهم غرب الى وليم جوردان وقتله في حادث لا أفهم كنهه ، وحدث ذلك لدى تعرضه لكمين وهوراكب في بعض الليالي ، وتساءل الجميع عن قام بهذا العمل ، ولكن أحدا

لم يتمكن من اكتشاف الفاعل ، ونتيجة لذلك شعر بعضهم بالحزن عليه لكن بعضا آخر ابتهج ولم تظهر عليه آثار الفجيعة ، وندب بعضهم وفاة صديق ، وفرح آخرون لموت عدو ، وفي جميع الأحوال بقي برترام تابعا وفيها للملك بلدوين .

ثم شدد الحصار على طرابلس من جميع الجوانب ، وقد بذل من كان خارجها الجهد العظيم لاحتلالها ، واشتد الضيق على من كان في داخلها ، ولما ضاق بالحصار سكان المدينة من المسلمين ، وفقدوا الأمل بالنجاة تم التوصل الى اتفاق أقسم عليه بالأيمان ، وصدق عليه الملك ، وقضى الاتفاق باعطاء الأمان للمسلمين وعدم قتلهم والسماح لهم بالذهاب حيث أرادوا وبلا ممانعة ، وبموجب هذا الاتفاق سمح للملك ورجاله باحتلال جزء من المدينة والدخول اليه ، وفي أثناء حدوث ذلك ، تفجرت فتنة واندلج الشغب بين صفوف العامة من أهل جنوى ، وذلك لأمر غير معروف السبب ، فتسلق الجنويون الأسوار بالحبال والسلالم ، ودخلوا الى المدينة وقتلوا كل مسلم صدقوه ، بيد أن الحماية قدمت للذين كانوا بجوار الملك ، وذلك بموجب الاتفاقية التي عقدها .

شعر :

سطعت الشمس في برج السرطان لثلاثين يوما ينقصها ثلاثة .
عندما استولى رجالنا الأشداء بقوة وبأس على مدينة طرابلس .

الاستيلاء على مدينة بيروت :

في الوقت الذي أقعد فيه شهر شباط لعام ١١١٠ البلاد وأقامها بأمطار الشتاء ، ركب الملك بلدوين الطريق وزحف نحو مدينة بيروت وضرب حولها الحصار ، وقدم الى عون برترام كونت طرابلس حيث

عسكر عند أول حدود المدينة ، وبعدما حاصروا المدينة من جميع الجوانب لمدة أقدرها بخمسة وسبعين يوما ، وبعدما حاصرت سفننا في داخل المرسى المراكب التي احتشدت هناك لتقديم العون للأعداء ، قرب الفرنجة الأبراج الخشبية ، التي شيدها ، الى السور ، وقفزوا منها بشجاعة فائقة الى أعالي السور وسيوفهم مشرعة ، ثم انحدروا الى داخل المدينة ، وفي تلك الأثناء دخل عدد كبير من رجالنا من الأبواب ، وهكذا طاردوا العدو المشتت بكل حماسة ، وأخيرا اعتقلوا الذين وجدوهم منعزلين مقطوعين هنا وهناك وابتزعو منهم أموالهم .

شعر

في سنة الف ومائة وخمس وستين
قهرت شجاعتنا مدينة بيروت الجبارة .
وقد صعدت الشمس ضعف العشرة في برج الثور .
وثلاث وأربع مرات أكثر عندما وقعت هذه الحادثة .

شروع الملك بلدوين والأمير تانكرد بالزحف ضد الأتراك
الذين حاصروا الرها :

بعدما انجزت هذه الأمور عاد الملك الى القدس ليقوم بحمد الرب
وشكره فهو الذي منحة النصر ، ثم بدأ يتجهز للزحف ضد الأتراك
الذين كانوا يحاصرون الرها ، وهي مدينة في بلاد الجزيرة .
وشاهدنا في تلك الأيام مذنبا امتد نحو الجنوب .

وحشد تانكرد أكبر عدد ممكن من الرجال في انطاكية ، ثم انتظر
وصول الملك لعدة أيام وأخيرا اجتمعت قواتهما المتعاونة قرب نهر
الفرات .

وفور جوازهم للفرات اصطدموا بالأتراك الذين كانوا يبحثون عنهم ، فقد سبق للأتراك ارسال العصابات تطوف في البلاد وتتدسس أخبار وصول الملك ، ولم يتجرأ الأتراك على مباشرة القتال والاشتباك مع قواتنا لمعرفتهم ببراعة فرساننا في القتال ومقدرتهم على الفتك بالرماح ، فركنوا بكل شطارة الى التراجع ، فلاهم أقدموا على القتال ولم يبدوا الرغبة في العودة الى ديارهم.

لقد سعى الأتراك ، لعدم رغبتهم بالقتال ، الى أنهاك رجالنا ، وذلك طوال عدة أيام بواسطة خداعهم المضني ، وبعد تفحص الأوضاع والبحث عن أفضل ما يمكن القيام به أرسل الملك الامدادات اللازمة الى مدينة الرها ، وزودها بالمؤن التي احتلج سكانها اليها بعدما كان الأتراك قد دمروا الأحواز ، وسلبوا القرى والفلاحين الذين كانوا يزودون المدينة المذكورة بالأغذية.

ولم يطل الفرنجة المكوث بعد هذا ، بل عادوا نحو النهر السالف الذكر ، وبعدما شرعوا في عبوره تدريجيا على طوافات خشبية صغيرة وقليلة العدد انقض عليهم الأتراك المخادعون هناك ، وأسروا عددا كبيرا من الرجال من قومنا وحملوهم الى بلاد الفرس ، وكذلك فعلوا بالأرمن الذين كانوا بلا حول ولا طول ، والذين كانوا قد نهبواهم بكل خسة من قبل ، ونظرا لصعوبة معاودة عبور النهر في ذلك الحين ، تابع الفرنجة سيرهم على طريقهم المرسومة تكلاً لقلوبهم الفجيعة ، وقد مضى تانكرد الى أنطاكية في حين ذهب الملك الى القدس.

الملك بلدوين مع النروجيين يحاصرون مدينة صيدا
ويستولون عليها:

وصل في تلك الآونة الى المنطقة قرب ياقا جماعة من
النروجيين ، بعدما ألهمهم الرب بالقيام بالحج من البحر الغربي
الى القدس ، وكان اسطولهم يحتوي على خمس وسبعين
سفينة ، ويقودهم شاب عظيم الوسامة يمت بصلة القرابة الى ملك
تلك البلاد.

وعندما عاد الملك الى القدس امتلأ قلبه سرورا لمقدم هؤلاء
القوم ، فتبادل بود معهم أطراف الحديث ، وحثهم - لابل توسل
اليهم - أن يبقوا محبة بالرب في الاراضي المقدسة لبعض الوقت حتى
يقدموا العون في سبيل نشر اسم المسيحية وتعظيمها ، وإذا ما
أحرزوا انجازا بارزا للمسيح ، كان بوسعهم العودة بعد ذلك الى
بلادهم ، وقد قدموا عظيم الشكر للرب وأصغوا الى هذا المطلب بعين
الرضى ، وأجابوا أنهم لم يحضروا الى القدس الا لمثل هذا
الغرض ، وأعلنوا أنهم سيبحرون بكل سرور الى أي مكان أراد
الملك ورغب بالتوجه اليه مع رجاله شريطة أن يزودهم بما يلزم
لعيشهم ، وتمت الموافقة على هذا الشرط وصدق الطرفان على
الاتفاق.

كان هناك ميل للزحف ضد عسقلان أولا ، غير أنه تم تبنيوا
أخيرا مشروعا أعظم مجدا ، في أن يزحفوا ضد صيدا
ويحاصروها ، وقاد الملك جيشه من عكا ، وتحرك النروجيون من
ياقا على ظهر سفنهم.

وكان اسطول أمير مصر في تلك الآونة يكمن مختبئا في ميناء
صور ، فمن صور شن المسلمون الغارات القرصانية مرارا على

حاجنا المسيحيين ، وبذلك قدموا الحماية والتشجيع الى المدن البحرية التي كانت ما تزال تابعة لسلطان ملك مصر ، لكن بعدما سمع المسلمون بأخبار النروجيين لم يتجاسروا على الخروج من مرقاً صور والدخول في معركة معهم.

ولما وصل الفرنجة الى صيدا حاصرها الملك من البر وحاصرها اسطول النروج من البحر ، وعندما اكتمل اعداد آلات الحصار ، دب الرعب في قلوب الأعداء من وراء الأسوار ، الى حد أن قسوات المرتزقة التي كانت تتولى حمايتها توسلت الى الملك بلدوين أن يأذن لها بالذهاب بأمان ، وإذا رغب فله أن يستبقي في المدينة الفلاحين للافادة في زراعة الأرض.

كان هذا ما طلبوه ، وذلك ما نالوه ، فغادر الجند من المرتزقة بدون ثروتهم ، ومكث الفلاحون بأمان في ظل الشروط المبينة أعلاه.

شعر:

أشرقت الشمس تسع عشرة مرة في برج القوس
عندما استولوا على مدينة صيدا في كانون الأول.

الأتراك يثيرون المتاعب ، وحملة الملك بلدوين
وتانكرد ضدهم:

انطلقت في سنة ١١١١ حشود هائلة من الأتراك من بلاد فارس و اجتازوا بلاد الجزيرة وعبروا نهر الفرات ، ثم حاصروا قلعة تل باشر ، وأقاموا حولها مدة شهر ، وعندما عجزوا عن احتلالها لمتانة أسوارها ومناعة موقعها ، ضاقت صدورهم بسبب

التأخر ، ورفعوا الحصار وانسحبوا الى أحواز حلب ، لأنهم خططوا بدهاء الى اثاره تانكرد واستدراجه ليخرج الى قتالهم ، لأنه لوفعل ذلك كان بإمكانهم - لكثرة أعدادهم - أن يوقفوه بعيدا عن أنطاكية ويدمره كليا.

لكن تانكرد تصدى للدهاء بالدهاء حيث لم يدر بمخيلته تعريض سمعته للشبهات باقتراف أفعال هوجاء ، فبعث برسول الى الملك بلدوين يتوسل اليه بكل تواضع أن يسارع لمديد العون الى القضية المسيحية ، ولما سمع الملك بذلك وعد بتقديم العون المطلوب ، فاستخلف من ينوب عنه في ادارة البلاد ، وزحف نحو الحرب واصطحب برترام كونت طرابلس ، وعندما وصلوا الى البلدة التي تعرف باسم الروج قرب المعرة كان تانكرد هناك ، فقد وصل منذ خمسة أيام و أقام ينتظر وصول الملك ، وقد استقبله بكل سرور و غبطة ، فأنزلوا أنقاليهم ، و أقاموا معسكرهم قرب نهر العاصي ، وشارك رجال القدس رجال أنطاكية في معسكرهم ، ولم يمكثوا هناك طويلا ، بل زحفوا نحو مدينة أفامية ، وكانت تحت سلطان تانكرد الذي سبق له أن استولى عليها بطريقة مثيرة للاعجاب لما فيها من اقدام.

ثم زحف الفرنجة ثم الاتراك الذين كانوا قد عسكروا أمام المدينة التي يدعونها « سيارا » وفي الحقيقة لا أعرف كيف ألفظها بلغة سليمة ، ولكن سكان البلاد كانوا يسمونها « شيزر » وهي تبعد نحو من ستة أميال من أفاميا ، وعندما سمع الاتراك أن الفرنجة كانوا يتقدمون نحوهم ، تخفوا خلف تحصينات شيزر وبين بعض الشجيرات التي كانت هناك ، وذلك بهدف احكام الدفاع عن أنفسهم إذا ما احاط الفرنجة بهم أو انقضوا عليهم وعلى الرغم من ذلك فقد انبعث الاتراك من بين تحصيناتهم الموصوفة عندما رأوا جنودنا يقتربون منهم ، وأروا أنفسهم لرجالنا ، ومع هذا لم يتجرأوا على الحرب ولم يرغبوا أيضا بالفرار.

واصطف جنودنا في فصائل ، وعندما رأوا الأعداء يتراكمون هنا وهناك دون تعبئة للقتال ، أحجموا عن مهاجمتهم غير راضين بالمغامرة ، وهكذا تحت تأثير الخوف ولدهاء الطرفين بقي الأتراك حيث هم وعاد رجالنا من حيث أتوا.

وعندما شحت الأغذية وانعدمت العلوقات لم يعد بإمكان الفرنجة البقاء مدة أطول فرجع الملك الى القدس ، ومضى تانكرد عائدا الى أنطاكية.

الملك يحاصر صور دون أن ينجز شيئا :

وبادر الملك بعد ذلك بكل سرعة بأعداد العدة والتجهز للزحف ضد صور ، التي تدعى بالعبرانية « سور » و ضرب عليها الحصار ، وبعدما ضيق الخناق عليها بشدة لنيف وأربعة أشهر هده ورجاله التعب ونالهم الاعياء ، فانسحب بعد تردد ، فقد كان أمر ببناء برجين خشبيين يكونان أعلى السور ، ودفعهما الى جوار الأسوار أملا بذلك في أن يستولي على المدينة ، ولكن المسلمين وقد أدركوا أن في ذلك حتفهم هزموا البراعة بالبراعة ، وعارضوا الدهاء بالدهاء وتصدوا للشجاعة بالشجاعة.

وكانوا عندما رأوا أن ارتفاع البرجين اعلى من فوق الأسوار بكثير ، ابتكروا العلاج على عجل فشيّدوا برجين فوق أسوارهم أثناء الليل ، وقد مكن ارتفاع هذين البرجين الشاهقين المسلمين من الدفاع عن أنفسهم بنجاح حيث أشعلوا النيران من الأعلى وقذفوها على برجينا القصيرين ، وبهذه الوسيلة هزم رجالنا وغمرهم اليأس ، وعندما انقطعت آخر حبال الأمل رجع الملك الى عكا.

يقول المثل المتداول بكل صدق « كم من غصّة بين الكأس

والشفقة « فقبل تلك الأونة كان قومنا يتوازعون الغنائم التي توقعوا نيلها ، وقبل ذلك الوقت شك بعضهم بسواهم وارتابوا حول حصصهم ، وقبل ذلك الحين قدروا أن احتلال المدينة أمر واقع لا ريب فيه ، وقد قال سليمان: « الفرس معد ليوم الحرب أما النصر فمن عند الرب » (الأمثال: ٢١ / ٣١) ففي تلك الأثناء وضع الناس ثقتهم بقوتهم ولم يتذكروا ماأمانوا به للرب ، وكانوا كثيرا ما يناشدونه بالسنتهم ويبتعدون عن صالح الأعمال ، ويتفاخرون بفضائلهم في انتصاراتهم أكثر من تمجيدهم لمنح الرب ورحمته .

موت الأمير تانكرد:

سدد في عام ١١١٢ تانكرد الذي حكم امارة انطاكية - دينة للموت ، وقد رأت الشمس شارة البرج ثلاث عشره مرة مضاعفة عندما خدع تانكرد لمن لايرحم ، وتحقق ماكتب عليه وكان ، وخلفه قريبة روجر ، وقد سلمنا من الحلول كلية في تلك السنة .

العلامات التي ظهرت:

في عام ١١١٣ لتجسيد الرب ، وفي اليوم الثاني والعشرين لبزوغ قمر شهر اذار ، رأينا الشمس منذ الصباح الباكر حتى الساعة الاولى ، وفضلا عن هذه رأيناها تبتهت ويخبو نورها في واحد من اجزائها ، ثم مالبت أن هبط ذلك الجزء الذي بدأ بالخبو من أوجها الى قعرها على هيئة مدورة ، وفي اعتقادي لم تفقد الشمس سطوعها و لم يتضاءل نورها الا في واحد من أرباعها الذي ظهر على شكل هلال صغير.

شعر:

كان ذلك كسوفاً جعل الشمس تخذلنا

المعركة ضد الأتراك التي هزم فيها الملك مع المسيحيين
ونجم عنها شر مستطير:

وما لبث الأتراك أن حشدوا قواتهم في ذلك الصيف وعبروا نهر
الفرات على نية الزحف نحو القدس وبلادها ليدمرونا حسبما خيل
اليهم ، وزحفوا جنوباً خلفين منطلقاً انطساكية عن
يمينهم ، واجتازوا سورية المجوفة بين صور وقيسارية فيليب التي
تعرف باسم بانياس وقصدوا مناطق فينيقية ، واستهدفوا مهاجمة
الملك بلدوين ، الذي ما أن سمع بقدمهم حتى زحف على رأس
قواته من عكا للتصدي لهم.

وبعدما تزود الأعداء بما راوه نافعا لهم ، وبينما كنا في جهل تام
لما يقصدون داروا حول بحيرة طبرية عابرين لمنطقتي « نافتالي »
(أفيق) وزبيلم (الصنبرة) نحو الجهة الجنوبية من البحيرة
المذكورة ، وهناك وجدوا أنفسهم بين جدولين يدعيان جور
ودان (؟)

وكان هناك جزيرة وقعت بين جسرين (جسر الصنبرة) في ذلك
المكان ، وقد كانت حصينة جداً ، بحيث لا يقدر أحد أن يهاجم من
يتحصن فيها لضيق مداخل الجسرين ، وعندما أقام الأتراك
معسكرهم ، بادروا فوراً بإرسال ألفين من رجالهم عبروا واحداً من
هذين الجسرين ليعدوا كميناً لرجالنا ، فقد كانوا على ثقة من أن
الفرنجة سيندفعون نحو ذلك الموقع بدون تردد.

وعندما جاء الملك ليعسكر قرب الجسر المذكور والمفضي الى
طبرية ، رأى نحو خمسمائة من الأتراك يندفعون من مكمنهم
ويحملون على رجالنا ، فما كان من بعض هؤلاء الا أن هاجموا
الأتراك وحملوا عليهم ولم يترددوا وهم يقتلونهم في مطاردة أعدائهم
الى موقع الكمين ، وهنا انبعث ألفان من رجال العدو من
مكمنهم ، وصدوا رجالنا بهجوم شديد جدا ، وشقتوهم بعدما
صرعوا منهم نحو ثلاثة أضعاف ما خسروا هم أنفسهم .

بالهول الفاجعة ، لقد جلبت أثمنا خزيا عظيما علينا في ذلك
اليوم ، فقد هرب الملك بعدما فقد رايته وخيمته الفاخرة وكثيرا من
المفروشات والأوعية الفضية ، كما هرب البطريرك أيضا ، فقد كان
هناك ، وفقدنا قرابة ثلاثين من خيرة فرساننا وحوالي ألف ومائتين
من رجالتنا .

« طلعت الشمس في برج السرطان ثلاثة أضعاف الأربعة
عندما شئت هذا الجنس الذي لا دين له الفرنجة المتهورين » .

غير أن قوات الملك لم تكن قد وصلت جميعها بعد الى ذلك
المكان ، وعلى الأخص لم يكن هناك روجر بن رتشارد أمير
أنطاكية ، وكان قد استدعي باسم محبة الرب والملك ، فقدم من
أنطاكية على عجل ، وكان بعض رجال أنطاكية قد انضموا قبل الآن
الى الجيش الملكي ، وأصيب الجميع بالأسى واليأس العظيم
وشجبوا بحزن عميق طيش الملك في اندفاعه نحو العدو
بحماقة ورعونة دون التأتي للمشاورة و العون .

ولما لم يعد في مقدور رجالنا ايقاع أي ضرر بين صفوف الأتراك
عسكروا غير بعيد عنهم ، وراقب كل فريق الفريق الآخر طيلة ذلك
اليوم .

وكان قائد الأعداء يحمل اسم مودود ، وكان معه طفتكين ملك دمشق وحليفه ، وقاد مودود قوة عملاقة وحشد طفتكين حشودا لا تحصى من اطراف سورية الواقعة تحت سلطانه.

وكان الأتراك معسكرين في الأراض المنخفضة بينما وقف الفرنجة فوق المرتفعات ، ولم يتجرا الأتراك على الخروج من جزيرتهم ، ولم يستطع الفرنجة مهاجمتهم ، فلقد خطط لذلك أحد الطرفين ، وخاف الطرف الآخر ، الحقيقة كان أحد الطرفين مأكرا بينما كان الطرف الآخر مهدودا من التعب

« وقد أثقلت حرارة الصيف الوطأة على الطرفين
غير أنهما لم يستطيعا وضع حد لذلك العذاب »

وتساءل الفرنجة الغائبون عن سبب طول تأخر الذين كانوا هناك ، وتخلى السراسنة (الكاسيليا - الفلاحون) التابعون لنا عنا وهجرونا ، وحاصرونا كأعداء لنا ، حاصرونا من كل جانب ، زد على هذا خرجت زمر من الأتراك من جيشهم لتدمر بلادنا ولتبعث بالمؤن والغنائم الى جيشهم بوساطة السراسنة ولم يكتف الأتراك بالاستيلاء على مدينة نابلس بل دمروها بمساعدة السراسنة الذين كانوا تحت سلطاننا في الجبال.

فضلا عن هذا تقدم اهل عسقلان وهم عرب وسراسنة ، على الرغم من قلة عددهم ، نحو القدس ، حتى وصلوا في أحد الأيام الى سور المدينة الخارجي ، واشعلوا النيران في المحاصيل المجمعمة هناك ، واصابوا بنشابهم بعض رجالنا الذين كانوا وراء دفاعاتهم فوق الاسوار وجرحوهم ، غير أن عددا كبيرا من رجالهم أصيبوا بجراح مميتة ، هذا ولم يكن جنودنا في المدينة لانهم كانوا قد خرجوا للتصدي للعدو ، وتراجع اهالي عسقلان في اليوم التالي مما جلب

ارتياحا كبيرا لرجالنا الذي ارتجفت قلوبهم من الحصار على يد هؤلاء القوم.

الرعب الشديد الذي دب في قلوب الجميع :

لقد بات من المحال في تلك الآونة - بسبب كمائن العدو ومصائده - أن يغامر أي رسول نبعثه الى الملك ، او أن يصل أي رسول منه الى أي مدينة من مدننا ، لذلك لم تعرف البلدان ما الذي كان يفعله الملك ، و لم يتمكنوا بدورهم من اعلام الملك بالذي كانوا يفعلوه.

« في كثير من الحقول نبل الحصاد الناضج
ولم يذهب أحد الى الحقول ليجمعه» (متى ٢٧/٩)

على هذا لم يجرؤ أحد على فعل ذلك ، وكان الحصاد في تلك السنة وفييرا ، لكن ما الفائدة ، فعندما يثور البحر يخشى الرجال أن يضطادوا ، فقد أصاب الشك كل شخص حول كل أمر ، وانتظر الجميع ليروا إلى من سيعطي الرب النصر ، وتوقف مسيحيونا عن متابعة أعمالهم وأشغالهم باستثناء إصلاح الأضرار التي لحقت بالمدن وبأسوارها .

الزلازل وزواج الملك من كونتسية صقلية :

شعرنا في تلك الآونة بالزلزلة مرتين وبالتحديد في اليوم الخامس عشر قبل مطلع شهر آب ، ثم في اليوم الخامس قبل منتصف الشهر نفسه ، وحدثت الهزة في المرة الأولى عند منتصف الليل وجاءت الثانية عند الساعة الثالثة .

وانتظر الأتراك في تلك الأثناء مدة شهرين بكل مكر لحلول الوقت الموائم لتمزيق صفوفنا وتمزيقنا والحقاق الهزيمة بنا ، لكن عبثا فعلوا وجاء مكوثهم بلا جدوى ، لأن الحجاج كانوا يصلون في ذلك الموسم حسب عادتهم عبر البحار ، وبذلك تضاعف عدد جيشنا يوما إثر يوم ، علاوة على ذلك لم يتخل عنا رجال أنطاكية ومكثوا معنا ، وانسحب أخيرا الأتراك نحو مدينة دمشق .

وتراجع الملك ورجاله نحو عكا ، وهناك وجد كونتسية صقلية ، وكانت من قبل زوجة للكونت روجر أخو روبرت غويسكارد ، وقد قدر لها الآن أن تصبح زوجة للملك بلدوين .

وبعد هذه الحادثة بوقت قليل اغتيل مودود على يد أحد « السراسنة » وكان هذا قد أخفى مديّة تحت رداثه فطعن بها ضحيته في معدته ، وهكذا اقتترف جريمة مزدوجة إذ أنه قتل وقتل في الحال على أيدي الحضور ، وإن النصر الذي يؤدي إلى هزيمة المنتصر لسمّ الطالع ، فهذا ما حدث ، حسبما جاء في أقوال الفلاسفة : « السعد من زجاج ما أن يتألق حتى ينكسر » .

وكان مودود وافر الثروة ، عظيم السطوة ، ذائع الصيت بين الأتراك ، وكان عظيم الهمة حازما في أعماله ، غير أنه لم يستطع مقاومة إرادة الله ، فقد شاء الله فأذن له أن يكون وباء علينا لبعض الوقت ، غير أنه شاء بعد ذلك أن يموت ميتة شنيعة على يد رجل نكرة .

الزلزلة التي شعر بها في أماكن عديدة :

زحفت في سنة ١١١٤ م أسراب لاتحصى من الجراد من بعض

أجزاء شبه جزيرة العرب ، وطارت إلى ديار القدس ، وقد أصابت في شهري نيسان وأيار محاصيلنا والحقت بها أضرارا بالغة .

وحصلت فيما بعد في عيد القديس لورنس (١٠ - أب) زلزلة ، وجاءت هزة ثانية بعد ذلك في منتصف تشرين الثاني فدمرت شطرا من مدينة المصيصة ، وهزت زلزلة أخرى عظمى - وكانت أشد ما سمعنا عنه على الإطلاق - منطقة أنطاكية ودمرت جزئيا أو كليا عددا من البلدان بما في ذلك البيوت والأسوار ، وقد هلك بعض عامة الناس وماتوا خنقا تحت الردم ، وذكر أن تلك الزلزلة قد دمرت مدينة مرعش التي أظنها تبعد حوالي الستين ميلا إلى الشمال من أنطاكية فهناك دمرت البيوت والأسوار برمتها ، أما السكان الذين عاشوا هناك فقد هلكوا - والأسفاه - وأبيدوا عن بكرة أبيهم ، كما ودمرت مدينة أخرى تدعى بالاس (تريالثر) على مقربة من نهر الفرات .

حشد الجيش التركي وحصار يافا على يد أهل عسقلان والقاهرة :

استأنف الأتراك في عام ١١١٥ م عنفهم وجراتهم المعهودة ، وتسللوا عابرين نهر الفرات في حزيران ، ودخلوا إلى سورية وعسكروا فيما بين أنطاكية ودمشق ، وبالتحديد أمام مدينة شيزر ، وكانوا اتخذوا لأنفسهم هنا موقعا مماثلا منذ أربع سنوات خلت كما سلف بنا الذكر .

وإكتشف طغتكين ذلك ، وعرف أنه لن يكون أقل مدعاة للاحتقار والريبة في نظر هؤلاء الأتراك عما هو في نظرنا نحن المسيحيين ، لأنه كان مطلعا غدرا وخيانة على مؤامرة اغتيال مودود التي أشرنا إليها في العام الماضي ، وذكرنا أن مودود هذا كان قائد الجيش الأعلى ،

ولهذا أحل طغتكين السلام بينه وبين كل من الملك بلدوين والأمير روجر صاحب أنطاكية ، وهكذا أضيف جيش ثالث إلى جيش الملك والأمير ، وأقيم - إذا جاز التعبير - رباط ثلاثي ، لم يستطع الأتراك فصرم عراه بعد ذلك بسهولة ، فلقد جشم طغتكين أنه لو بقي منفردا أن يتم تدمير مملكته كليا .

وحضر الملك بلدوين إلى المنطقة للمشاركة في المعركة التي خيل إليه أنها لا بد واقعة ، وجاء بناء على مشورة تلقاها من بعثة من أنطاكية ، وعندما سمع الأتراك بقدمه وأنه بات على مقربة منهم خيل إليهم أن ذلك ما هو إلا مقدمة لجيوش أنطاكية ودمشق ، فهذا ما كانوا يتوقعونه منذ ثلاثة أشهر ، وانسحب الأتراك وتراجعوا خائفين بهدوء ، فقد خافوا على أرواحهم إذا ماقاتلوا ضد جيش بهذا الحجم ، مع أنهم فاقوه كثيرا بالعدد ، ودخلوا إلى المغائر التي تبعد كثيرا عنا ، وعندما فعلوا ذلك خيل للملك ولحلفائه أن الأتراك قد غادروا منطقتنا بالكلية ، ولذلك توجه الملك إلى طرابلس .

و في خلال هذه المجريات ، انقفع نحونا رجال عسقلان لمعرفةم أن بلاد القدس خالية من جنودها ، وحاصروا يافا برا وبحرا ، فقد كان هناك أسطول مصر المكون من حوالي السبعين قطعة بحرية بعضها ثلاثية المجانيف وبعضها الآخر من السفن المعقوفة ، وقسم منها كان يحمل المؤن المعدة لهذه الحملة ، ووصل رجال عسقلان بعضهم برا وبعضهم الآخر بحرا ، واقتربوا من أسوار المدينة وكانوا مجهزين للهجوم عليها ، وعندما بذلوا غاية جهدهم لتسلق الأسوار بواسطة السلالم التي أحضروها معهم ، صدمهم سكان المدينة ودفعوهم بشدة مع أنهم كانوا قلة في العدد ، قد أضعفهم المرض .

ولما رأى أهل عسقلان أنهم لم ينجزوا شيئا حسبما خططوا ، سوى طرح النار في أبواب المدينة خافوا أن يبعث أهل القدس الذين سمعوا بالأخبار العون إلى أهل يافا لذلك انسحبوا ، ورجع الذين

قدموا برا إلى عسقلان أما الذين قدموا بحرا فقد عادوا إلى مدينة صور .

وبعد عشرة أيام عاد أهل عسقلان إلى يافا ظنا منهم أنهم إذا كانوا على أتم استعداد فسيتمكنون من تدمير عدوهم بهجوم صاعق لاسيما إذا كان على غير استعداد ، ولكن الرب الكلي المقدرة ، حمانا وأنقذنا مثلما فعل في الماضي ، وقتل الفرنجة أثناء الدفاع عن أنفسهم بعض الأعداء ، واستولوا على خيولهم وبدأ أهالي عسقلان حصارهم ليافا بضربها بالمجانيق ثم حاولوا اقتحامها كما جربوا من قبل ، بتسلق السلالم التي جلبوها معهم على ظهر القوارب الصغيرة ، وخلال ست ساعات من القتال أنهكت قواهم فانسحبوا أسفين يحملون معهم موتاهم .

معركة بين الأتراك و رجال أنطاكية حاز فيها الفرنجة نصرا مؤزرا:

وعندما اكتشف الأتراك السالفي الذكر أن جيشنا قد عاد إلى بلاده ، رجعوا إلى مواقعهم التي ذكرناها من قبل ، وعاثوا فسادا في أراضي سورية المجوفة ، فاستولوا على ما أمكنهم من القلاع ، ونهبوا القرى ودمروا الدساكر وأخذوا النساء والرجال أسرى .

وعلم رجال أنطاكية بذلك بعد انسحابهم ، فارتدوا كارين على عجل ، وزحفوا ضد الأتراك عبر الطريق التي غادروا منها ، وعندما اقتربوا من الأتراك وجدوا أن معسكرهم كان أقرب مما خيل إليهم فوضعوا أنفسهم في تعبئة المعركة ، وانحدروا على الفور نحو منطقة المعسكر وكانت خيولهم تعدو بهم بسرعة نحو العدو وراياتهم مشرعة ، ونشب القتال قرب بلدة سرمين .

وحين رأى الأتراك الفرنجة ، أبدى فيلق رماة السهام منهم مقاومة شديدة في الحال ، غير أن روح الحماسة والشجاعة الفائقة ازدادت تأججا في صدور الفرنجة ، فأثروا هزيمة أعدائهم - بعون الرب - أو أن يموتوا - بإذن الرب - على أن يتحملوا تحرشات الأتراك هذه كل عام ، لقد انقضوا على الأعداء بضراوة مذهلة وشددوا عليهم حيث راوا تجمعاتهم على اكتفها .

وفي البداية قاوم الأتراك لبعض الوقت ، ثم هربوا فجأة من أمام الذين فتكوا بهم وأهلكوهم ، وقد قدر عدد القتلى من الأتراك بثلاثة آلاف كما وقع بالأسر عدد كبير منهم ، أما الذين نجوا من الموت والأسر فقد لانوا بالفرار ، ففقدوا خيامهم التي احتوت على كثير من الأموال والنخائر ، وقد قدرت الأموال بثلاثمائة ألف قطعة ذهبية ، وخلف الأتراك في معسكرهم الأناص الذين كانوا قد أسروهم من شعبنا من الفرنجة والسريان ، كما خلفوا زوجاتهم وخدمهم من الجوارى مع كثير من الجمال والدواب التي أحصى بينها آلاف البغال والخيول .

لاشك أن الرب رائع في جميع معجزاته ، فعندما كان رجال القدس ومعهم رجال أنطاكية ودمشق مستعدين لخوض المعركة لم ينجزوا شيئا أبدا ، لأنه متى كان نصر المحاربين يعتمد على عدد الرجال ؟ تذكر المكابيين (المكابيون : ١ / ١١ • يهوذا : ٦ / ٨) وكثير غيرهم من الذين وضعوا ثقتهم بقوة الرب لابقوتهم فانحصروا على الآلاف المؤلفة .

وبالوصف التالي ستعرف الأجيال المقبلة هذه الحوادث :

« ومرت ليال ثلاث قبل أن ينقض برج العذراء عندما تخلى الحظ العائر عن الأتراك بقسوة فمن الجلي إذن : إن على الجميع أن يحسبوا أنه قبل نهاية أي مسألة ينبغي ألا يعتبر أي أمر مؤكدا »

ودمرت في تلك السنة مدينة المصيصة بفعل الزلازل ، وقد تضررت
اماكن اخرى في منطقة انطاكية بمثل ذلك .

ووصل في تلك السنة اسقف اورانج مبعوثا إلى القدس من قبل
كرسي البابوية ، فعزل البطريرك ارنولف من منصبه ، ولهذا السبب
توجه ارنولف إلى روما واسترد بطريركيته فيما بعد .

القلعة التي جرى تشييدها في وادي عربة :

قصد الملك بلدوين في ذلك العام وادي عربة وشيد هناك قلعة منيعة
على قمة جبل صغير ، وهي لاتبعد كثيرا عن البحر الميت ، مجرد
مسيرة ثلاثة أيام ، وتبعد عن القدس حوالي أربعة أيام ، وقد أبقي
فيها حامية لتتسلط على المنطقة حماية لمصالح المسيحيين ، وقرر أن
يسمى تلك القلعة مونتريال (الشوبك) وذلك تمجيدا لنفسه لأنه
بناها في فترة قصيرة ، بعدد قليل من الرجال وكثير من الشجاعة .

حملة الملك إلى وادي عربة وما شاهده هناك :

عندما ذهب الملك مع قرابة المانتي فارس لزيارة قلعته ثانية في
وادي عربة وذلك في عام ١١١٦ ، تقدم حتى طرف البحر الأحمر
ليرى ما لم يشاهد من قبل على أمل أن يجد شيئا في طريقه قد يرغب
في اجتيازه ، ووجد في ذلك الوقت مدينة أيلة على شاطئ ذلك البحر
حيث قرأنا أن بني اسرائيل قد عسكروا هناك بعدما عبروا البحر ،
ولدى سماع العرب المقيمون هناك بأخبار قدوم الملك هربوا وركبوا
البحر في قواربهم الصغيرة بعدما أصابهم هلع شديد ، وعندما تفقد
الملك ورجاله الموقع كما طاب لهم ، عادوا إلى القلعة في
مونتريال (الشوبك) ومنها توجهوا عائدين إلى القدس .

وعندما حدثونا عن مشاهداتهم ، سررنا لبسماع رواياتهم ولرؤية
الأصداف البحرية وبعض الأحجار الكريمة التي أحضروها معهم ،
وقد استفسرت أنا منهم شخصيا عن ماهية هذا البحر ، تلك أنني
كنت قد تساءلت في تلك الأثناء عما إذا كان مالحا أو عذبا ، وهل
كانت مياهه راكدة أم هي مثل مياه البحيرة ، وهل كانت له مداخل
ومخارج مثل بحر الجليل (طبرية) وعما إذا كان محدد الأرجاء
كالبحر الميت الذي يصب فيه نهر الأردن ، ولا يخرج منه شيء ، ذلك
أن البحر الميت تحده من الجنوب زغر مدينة لوط (سفر التكوين :
١٣ / ١٠ ، ١٩ / ٢٢ - ٢٤)

البحر الاحمر :

اطلق على هذا البحر اسم الاحمر لان الرمل والحجارة في قاعة
حمراء ، فهو لهذا يبدو للناظر كأنه احمر ، لكن مياهه رائقة صافية
إذا وضعت في وعاء ، مثلها مثل مياه اي بحر اخر ، ويقولون : ينبع
هذا البحر من المحيط في الجنوب ، ويمتد كلسان شمالا الى أيلة
التي اشرنا اليها ، حيث ينتهي على مقربة من جبل طور سيناء الذي
يبعد عنه مسيرة يوم واحد للراكب على الحصان .

ويقدرون ان الرحلة من البحر الاحمر ، او بالحري من أيلة الى
البحر الكبير ، الذي نبحر فيه من يافا وعسقلان الى دمياط ،
تستغرق حوالي اربعة ايام او خمسة على ظهور الخيل ، وتضم هذه
المنطقة فيما بين هذين البحرين كل من نوميديا ومصر والسودان
التي يحيط بها نهر جيحون ، وهو نهر الجنة الذي هو نهر النيل
كما قرانا (التكوين : ١٣ / ٢) .

نهر جيحون :

كنا قد قرأنا كيف يخرج نهر جيحون (النيل) من الجنة مع انهار
ثلاثة أخرى ، وهذا يدهشني ، ولاأقدر على تفسير : كيف ، وبأي
طريقة ، وجد مصدرا اخر يصب فيه ؟ ذلك ان البحر الاحمر من
ناحيته الشرقية ، وبحرنا من ناحيته الغربية ، فبينه وبين الشرق
يقوم البحر الاحمر ، ومع هذا نقرا ان الجنة قائمة في الشرق ،
ولذلك انني استغرب كثيرا كيف يتابع مجراه في هذه الناحية من
البحر الاحمر ، وكيف يقطع البحر ، او فيما اذا كان فعلا يقطع
البحر .

الفرات :

ويقال الامر نفسه عن نهر الفرات ، الذي له مصدر اخر في ارمينية ،
فيقطع بلاد الجزيرة على بعد حوالي اربعة وعشرين ميلا من الرها
على ماظن .

دع من اراد ان يتساءل عن هذا السبب ، واترك من يستطيع ان
يعرف السبب ، فقد جربت مرارا ان اعرفه بسؤال عدة اشخاص ،
غير انني لم اجد ابدا من استطاع ان يفسره لي ، وانني ادع هذا
التفسير للذي يرفع الماء الى السحب بقدرته المعجزة ، ويرفع
الجداول الى الجبال والتلال ، ويجعل مياه الوديان تنساب بين
صدوع الاخاديد الخفية ، الى ان تجد البحر في نهاية المطاف وتبتلع
في احشائه .

وعندما قاربت هذه السنة على الانتهاء ، اصيب الملك بمرض
ازداد تعاطما حتى خشي من الموت ، لذلك صرف ابيدا زوجته

الجديدة - كونتسية صقلية من قبل، التي تقدم نكرها ، والتي كان قد تزوجها خلافا للناموس - نلك ان التي كان قد تزوجها قانونيا قبلها كانت ماتزال على قيد الحياة في مدينة الرها .

جانحة الجراد الكبيرة :

غادرت الملكة المذكورة ميناء عكا في عام ١١١٧ لتجسيد مولانا المسيح ، ونلك في اليوم الذي انشدوا لها فيه الصلوات المؤلفة من جملة من الابتهالات حسب طقوس الكنيسة ، وقد سافرت بحرا الى صقلية وبرفقتها سبع سفن .

وعجت اراضى القدس في شهرايار بأسراب لاتعد ولاتحصى من الجراد التي التهمت اكثر مما هو معتاد الكرمة ومحاصيل الحقول والاشجار على مختلف انواعها ، وكنت تشهد هذه الاسراب تزحف مثل جيش منتظم من الرجال كما لو انهم عقدوا المشورة ونظموا زحفهم حسب اتفاق ، وبعدها كانوا يقضون رحلة يومهم زاحفين وبعضهم طائرين كانوا يختارون بالاتفاق مرقدنا مريحا لأنفسهم ، وهكذا عندما التهموا كل ما هو اخضر وقضموا حتى لحاء الشجر ، غادرت اسرابهم بعضها مجنح وبعضها الاخر زحاف بلا اجنحة .

سحقا لحماقة الرجال الذين يمعنون في ضلالهم المؤذي ، فكثيرا ومرارا ما يلامسنا الخالق بتحذيره ويرعبنا بنذره ، ويحسركنا بوعيده ، ويرشدنا بعبيره ، ويكبحنا بعقابه، غير اننا نمعن في غينا ولا نصغي الى نصحه ونخرق تعاليمه بازدرء .

٣

ما وجه الغرابة والحال هكذا اذا ما انتزع السراسنة - او اناس اشرار سواهم - منا بلادنا ، بينما نمد نحن انفسنا يد اللصوصية الى حقول جيراننا ، فنحن نحتال بالفعل بثلم المحراث ، او بسبلهم

خفية بأعمال جشعة منكرة ، وهكذا نزيد ثرواتنا اثما بوضع ايدينا على ممتلكاتهم .

فما وجه الغرابة ، اذا ما انن الرب ، وقضمت الفئران محاصيلنا من جنورها في الارض وهي في حالة البرعمة ، او اذا ما التهمها الجراد بعد نضجها ، او اذا ما اصابها العطب في المخازن بسبب التعفن ، او التهمتها الديدان من كل نوع ، بينما نبيع نحن ضللا اعشار الرب ، او نحفظ بها كلية مدنسين المقدسات .

شارات القمر :

في الشهر التالي الذي صادف شهر حزيران ، بدا القمر لمن كان منا ينظر الى السماء بعد وقت صياح الديك ، ولونه احمر كليا في البداية ، غير ان الاحمرار مال بث ان تغير الى سواد ، حتى ان القمر فقد قوته الضوئية مدة ساعتين تقريبا ، ووقع هذا في اليوم الثالث عشر من الشهر ، ولو وقع في اليوم الرابع عشر لكننا ظنناه خسوفا بدون شك .

لذلك عدنا ذلك نذير ، وخيل الى بعضهم انه بسبب الاحمرار سيسفك الدم في القتال ، و بسبب السواد ظن آخرون ان المجاعة قادمة ، غير اننا سلمنا الامور للعناية الربانية ، فالرب قد اخبر رسله انه ستكون هناك علامات في الشمس والقمر (لوقا ٢١ / ٢٥ و تكون علامات في الشمس والقمر و النجوم) .

فالرب اذا شاء يجعل الارض تهتز ثم تسكن ، وقد تتابع وقوع ذلك في الشهر نفسه في ليلة ساد فيها السكون ، وذلك في اليوم السادس قبل بداية شهر حزيران.

القلعة التي بنيت قرب صور :

ثم بنى الملك امام مدينة صور قلعة تبعد عنها مسافة خمسة اميال ، وقد سماها سكانليون وتفسير هذا الاسم « اسد الحقل » وقد رمم صدوعها ، وترك فيها حامية لتتولى كبح جماح سكان صور .

العلامة المدهشة التي ظهرت على الشمس :

في الليلة الخامسة من شهر كانون الاول من السنة نفسها بعد خسوف القمر الذي حصل في الثالث عشر من ذلك الشهر ، راينا جميعا في بداية الليل ، السماء الشمالية وقد خطها شعاع من لون فاقع من النار و الدم، وقد تولتنا الدهشة كثيرا اذ حسبنا أن هذه الظاهرة حبلى بالندر المريبة ، وشاهدنا في وسط هذا الاحمرار ، الذي اخذ يتزايد شيئا فشيئا اشعة بيضاء كبيرة اخذت تتعالى من القمر نحو القمة مرة في المقدمة ومرة في المؤخرة ثم في المنتصف وبدت السماء في الجزء المنخفض فاقعة اللون ، مثل لونها عند طلوع الفجر حين توشك على الاضياء قبيل شروق الشمس ، وشاهدنا امام هذه الظاهرة من الناحية الشرقية بيضا كأنه القمر وقد اوشك على الطلوع هناك، ولهذا تألقت الارض وجميع الجهات في هذا المشهد ، ولو ان ذلك وقع في الصباح لقلنا جميعا : ان النهار كان ساطعا ، لذلك خمنا انه اما سيسفك دم كثير في الحرب اوستقع واقعة لاتقل عن ذلك ، فهذه نذرهما ، ولقد سلمنا كل شيء بتواضع الى الرب المتعال الذي لم يغفل عنا في قضاء اموره .

وتنبأ بعض الناس واعلنوا ان ذلك كله كان نذيرا بموت اشخاص سيلاقون حتفهم في السنة المقبلة ، وبالفعل توفي هؤلاء الاشخاص فيما بعد وكان منهم : البابا باسكال في شهر كانون الثاني ،

وبلدوين ملك سكان القدس في نيسان وايضا زوجته في صقلية التي كان قد ابعدھا ، والكسيوس امبراطور القسطنطينية وعدد كبير اخر من عظماء الرجال في العالم .

موت الملك بلدوين :

هاجم الملك بلدوين في اواخر شهر اذار من عام ١١١٨ لتسجيد المسيح مدينة الفرما ونهبها ، ثم ذهب ماشيا في احد الايام على شاطئ النهر الذي يدعوه الاغريق باسم النيل ، ويدعوه اليهود باسم جيحون ، ولقد سار مع بعض اصدقائه على مقربة من المدينة ممتعا نفسه ، واستخدم بعض الفرسان رماحهم وحرابهم هناك بمهارة فائقة في اصطياد الاسماك، وحملوها الى المعسكر المقام قرب المدينة نواكلوها، ومالبت الملك ان شعر في احشائه بالام جرح قديم تجددت بشكل شديد ، لذلك اصيب بضعف عظيم . وعلى الفور اعلنت الاخبار وعممت على رجاله ، ولما سمع هؤلاء بذلك شعروا مخلصين بتعاطف وجداني معه ، ونزل بهم الاسى واصابهم الحزن الشديد وقرروا لهذا العودة نحو القدس ، وبما ان الملك لم يستطع الركوب فقد اعدوا له محفة صنعوها من عشرة اعمدة ومددوه عليها ، ثم صدرت الاوامر بالعودة الى القدس بصوت بوق المنادي .

وعند وصولهم الى بلدة تسمى العريش مات بلدوين اخيرا بعدما اصاب الهزال جسمه وهذه المرض ، فانزعوا احشاؤه وملحوها وطرحوها في التابوت ثم خفوا الخطا نحو القدس .

وفي اليوم الذي جرت فيه العادة بحمل سعف النخيل ، واجه موكب الجنازة بمشيئة من الرب وهو يحمل حملة الحزين الموكب الديني وهو ينحدر من جبل الزيتون الى وادي يهوشافاط ، وكانت تلك بالفعل صدفة نادرة الوقوع، وما ان شاهد الحضور ذلك حتى

اجهشوا بالبكاء ، واخذوا بالندب بدلا من الانشاد وكأنما بلدوين قريبيهم ، وشعروا بهول الفاجعة بدلامن السرور وبكى الفرنجة وحزن عليه السريان وحتى السراسنة الذين شهدوا ذلك فعلوا الشيء نفسه ، وجميع الذين بكوا هنا بخشوع لم يتمكنوا من تمالك انفسهم ، وبناء عليه قام رجال الاكليروس وعامة الناس بآداء واجباتهم حسب العرف والعادة في مثل هذه المناسبات الحزينة ، فعلوا ذلك وهم في طريقهم الى المدينة ، ثم دفنوا بلدوين في الجلجلة الى جانب اخيه الدوق غودفري .

مرثية في الملك بلدوين

عندما مات الملك بكاه شعب الفرنجة الورع
نلك انه كان درعهم و مصدر قوتهم و معينهم
كان ساعد شعبه الايمن و كان الرعب لاعدائه و الخصم
و كان القائد الجبار للبلاد مثلما كان اليشع
و قد انتزع من اعدائه غير الاتقياء عكا و قيسارية و بيروت و صيدا
و اخضع بعد ذلك إلى حكمه وادي عربة أو على الأقل ما جاور البحر
الأحمر من بلاد.

واستولى على طرابلس وبعزيمة لا تقبل عن ذلك احتل ارسوف
و كذلك قام باعمال مجيدة اخرى عديدة
و بقي على العرش ثمانية عشر عاما
ثم مضى الى مصيره الاخير حسبما قدر له
ورأت الشمس برج القوس ست عشرة مرة
عندما مات الملك بلدوين العظيم .